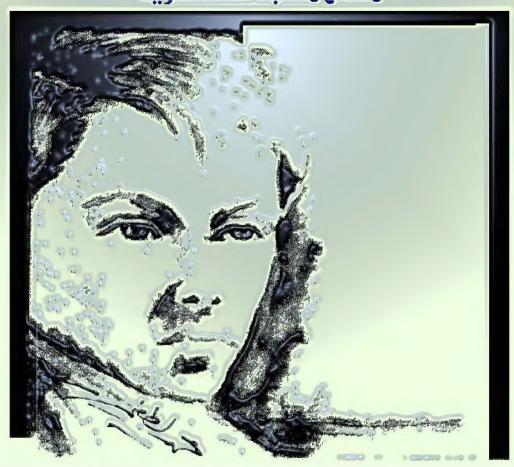
جورجی آمادو ترجمة/ شحات صادق

منتدى مكتبة الاسكندرية



بلاد الكرنقال

```
الكتـــاب: بلاد الكرنقال رواية
```

ترجيم : تلاول ١٩٩٨ م النظر الم

الناشيين بمكتبة مدبولي ٦- ميدان طلعت حرب القاهرة

ت: ۲۱ ۱۳۵۹ م. تليفاكس: ۱۸۴۴ ۷۵

رقــــم الإيــــداع: ٩٧/٧٨٦٦ التــرقــيم الدولي: 8 - 209 - 208 - 977 ISBN -

لوحـــة الغـــلاف: أحمد صفوت الجــمع التـصـويري دارجهاد ٢٦ ش إسماعيل أباظة – لاظوغلي والتنسيق الداخلي: ت: ٣٥٦٤٧٨٣

چـورچـی آمادو

بلاد الكرنقال

(روایسة)

ترجمة: شحات صادق

الناشر مکتبت مدبولی ۱۹۹۸

آمادو الروائى والإنسان

هو أكبر كاتب برازيلى معاصر. وواحد من أشهر كتاب أمريكا اللاتينية وأكثرهم مبيعاً فى العالم (٣٠ مليون نسخة فى ٣٥ لغة). ورائد من رواد الواقعية المدهشة التى يطلق عليها البعض الواقعية السحرية. أسماء رواياته وأبطاله تطلق على المطاعم والحانات والشوارع وتستوحى فى المؤلفات الموسيقية. أغلب أعماله يتم اقتباسها للسينما والمسرح والتليفزيون.

عمل فى الصحافة مراهقاً لم يبلغ الخامسة عشرة. مارس العمل السياسى مناضلاً فى صفوف اليسار وانتخب نائباً بالبرلمان عن دسان باولو». تعرض للملاحقة وعرف السجن والمنفى. زار العديد من البلدان وأقام فى بعضها لفترات إبان حكم الدكتاتوريات البرازيلية. سافر إلى أمريكا وروسيا والصين وشيلى والأرجنتين وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا فكانت له صداقات مع الأدباء والفنانين فى هذه البلاد. حصل على أكبر الجوائز الأدبية فى بلاده ونال جائزة لينين فى الأدب فى ١٩٥١. انتخب عضواً بالأكاديمية البرازيلية للآداب فى ١٩٦١.

ولد «چورچى آمادو» فى ١٠ أغسطس ١٩١٧ فى جنوب ولاية «باهيا» بشمال شسرق البرازيل. كان أبوه «چواو» أحد الملاك الصغار لمزارع الكاكاو فى وقت كانت المنطقة تعيش تحولات اقتصادية واجتماعية عنيفة؛ فالزراعات التقليدية لقصب السكر والبن تحل محلها زراعة الكاكاو الأوفر ربحاً. ولقد شهدت هذه التحولات صراعات دموية للاستيلاء على الأراضى كان أبوه يشارك فيها، وكانت هذه المنازعات تحسم بطلقات الرصاص أو طعنات الخناجر.

ويأتى فيضان نهر «كاشويرا» في ١٩١٤ فيدمر الكثير من الزراعات ويفلس الأب فيوسس تجارة صغيرة في «إيلياوس» حيث يستقر مع أسرته ولكنه سرعان ما يؤسس من جديد مزرعة للكاكاو في ١٩١٧. في هذه الفترة، وفي مرحلة الطفولة المبكرة تتفتح عينا «چورچي آمادو» على جو العنف والصراع على الأرض.

وعندما يبلغ سن العاشرة في ١٩٢٢ يلحقه أبوه بالقسم الداخلي بمدرسة أنطونيوفييرا اليسوعية في «سان سلفادور»، وهناك يقوم الراهب البرتغالي «لويس جونزاجا» بإرشاده إلى طريق الأدب البرتغالي الكلاسيكي والأدب الانجليزي الرومانتيكي، وهو الذي يكتشف مواهبه الأدبية المبكرة. ولكن «چورچي آمادو» يضيق بجو المدرسة ويحاول أن يهجر الدراسة.

وعند يبلغ "چورچى آمادو" الرابعة عشرة فى ١٩٢٦ يقوم بمغامرة سيكون لها تأثير كبير على حياته وأدبه. يهرب آمادو ويذهب إلى مرزعة جده فى ولاية "سيرچيب". ويجتاز عدة مئات من الكيلومترات سيراً على الأقدام، عبر الحقول فى "باهيا" ودون مليم فى جيبه فكان ينزل فى ضيافة الفلاحين وعبيد الأرض من الزنوج والخلاسيين. وفى ١٩٢٧، يلحقه أبوه من جديد بالقسم الداخلى لمدرسة "إبييرانجا" فى «سلفادور» حيث جو المدرسة أكثر انفراجاً من سابقه. وهناك يساهم فى النشاطات الأدبية للمدرسة ويقرأ بنهم لكتاب البرازيل وكتاب أوربا. ويحدث فى ذلك الوقت أن تمتد "حركة الحداثة البرازيلية" إلى "سلفادور" فيشارك فيها أمادو بحماسة، وفى هذه الفترة أيضاً، يساهم بالكتابة فى عدة صحف منها "يوميات باهيا" و"الأسبوع"، و"منتصف النهار" و"اللحظة". وفى مدينة سلفادور يعيا حياة بوهيمية تنيح له أن يتعرف على قاع المدينة وأزقتها الخلفية ويعاشر أهلها عن قرب خاصة الصعاليك والمتشردين والحمالين والباعة المتجولين وباعة أهلها عن قرب خاصة الصعاليك والمتشردين والحمالين والباعة المتجولين وباعة الفطائر والمأكولات الشعبية والمومسات...

وفى يونيه ١٩٣٠، بعد أن يتم دراسته الثانوية، يذهب إلى «ريو ديه چانيرو» استعداداً للالتحاق بالجامعة، ويكتب أولى رواياته «بلاد الكرنفال».

وفي ١٩٣١ يلتحق بكلية الحقوق، وينضم إلى جسماعة الأدباء الشبان. وفي

نفس العام تصدر (بلاد الكرنفال) التي تنفجر كقنبلة في الجو الأدبي الراكد آنذاك. وتلاقى الرواية حفاوة شديدة من النقاد والجمهور على السواء.

فى هذه الرواية التى كتبها فى سن الثامنة عشرة يضع آمادو يسله على موطن الله على الموطن الله على الموطن الله على المولية. الله عن الهوية. ليس فى السياسة فحسب بسل فى الاقتصاد والأدب وأساليب الحكم وكل نواحى الحياة.

أليست هى المعضلة فى كل بلاد العالم الثالث تقريباً؟ وهكذا تكون هذه الرواية التى كتبت منذ أكثر من ستين عاماً صالحة للقراءة اليوم وغداً، بأبعادها الإنسانية وتخطيها لحواجز التاريخ والجغرافيا معاً.

وسوف تؤكد أعمال آمادو اللاحقة على التزامه السياسي والاجتماعي إذ تصدر له «كاكاو» في ١٩٣٧ فتصادرها الشرطة لتصديها لمشاكل البرازيل الاجتماعية، تتبعها رواية (عَرَقٌ» في ١٩٣٤، (چوبيابا»، (بحرميت» في ١٩٣٦، (قباطنة الرمال» في ١٩٣٧، طريق البحر (شعر) في ١٩٣٨، (ألف باء كاسترو آلفيس» (سيرة» في ١٩٤١، (فارس الأمل» في ١٩٤٢، (أراض لا نهاية لها» في ١٩٤٢، (أرض ثمسارها من ذهب» في ١٩٤٤، (دروب الجوع» في ١٩٤٢، (في حب كاسترو آلفيس» (مسرحية) في ١٩٤٤، (عالم السلام» (أدب رحلات) في كاسترو آلفيس» (مسرحية) في ١٩٤٤، (حالم السلام» (أدب رحلات) في ١٩٥٠، (أنفاق الحرية» في ١٩٥٤، (جابريبلا» في ١٩٥٨، (البحارة المسنون» في ١٩٦١، (دونا فيلور وزوجها الاثنان» في ١٩٦٦، (دكان المجاثب» في ١٩٦٩، (تيريزا باتيستا» في ١٩٧٧، (تيبنادو آجرستي» في ١٩٧٧، (فاردا فارداو» في ١٩٧٧،

ويقسم بعض النقاد هذه الروايات تقسيماً مكانياً إلى ثلاث مجموعات: روايات الأرض، وروايات البحر، وروايات المدينة. وهناك تقسيم آخر يحلو

لبعض النقاد أن يتبعوه إذ يقسمونها إلى: روايات _ ملاحم، وروايات _ قصائله، وروايات _ قصائله، وروايات _ مساخر. وفي كل هذه الأعمال يعالج آمادو موضوعاته وشخصياته مركزاً على الوجدان الشعبي بكل ما يرفله من حكايات شعبية وأساطير وفولكلور معتملاً على أساليب الحكى الشفاهية، وإن كانت غنائيته لاتحجب الوثائقية في أعماله، إذ تعتبر كمل أعماله وثائق اجتماعية واقتصادية وسياسية تقف على قدم المساواة مع الأبحاث الأكاديمية في علوم الاجتماع والانثروبولوجيا.

وإذا كان بعض الأدباء يعيشون في أبراج عاجية أو في أفضل الأحوال، يجمعون حولهم حلقة من المريدين من ناشئة الأدباء أو مدعى الأدب فإن المادوة يعيش كأديب وإنسان ملتحماً بشعبه الذي أحبه والذي يبادله حباً بحب. وهذه شهادة من الأستاذ الروجيه باستيدة الناقد الأدبي وعالم الأنثر وبولوجيا الفرنسي الشهير والذي تجمعه صداقة حميمة بچورچي آمادو. يقول الروجيه باستيدة: الكنت أرافقه مراراً في شوارع اباهيا وكانت تأتي بنات الله للركوع أمامه طالبات بركته، وكان الباعة المتجولون يحيونه بصيحاتهم وضحكاتهم المرحة. وكان الزنوج يشلونه بين سواعدهم ويقدمون له قدحاً من القهوة أو كأساً من الشراب تميراً عن الصداقة المناضلة».

وأخيراً، فإن البلاد الكرنفال، التي صدرت في البرازيل في ١٩٣١ ظلت حتى وقت قريب لايمكن قراءتها إلا بالبرتغالية حسب رغبة مؤلفها. في ١٩٨٤ فقط، وتحت إلحاح الأستاذة الوتشانا ستيجانو بيتشو، وافق چورچي آمادو، ويصفة استثنائية، أن تظهر الرواية في ايطاليا في طبعة خاصة بمناسبة عيد ميلاده. بعد ذلك كان طبيعياً أن يصرح للسيدة اآليس ريّار، أن تترجم الرواية إلى الفرنسية فصدرت عن دار جاليمار في باريس في ١٩٩٠ وهي التي نترجمها هنا.

ومن حسن المصادفة أن أول أعمال «چورچى آمادو» التى تترجم فى مصر هى فى نفس الوقت أولى رواياته: «بلاد الكرنفال» والتى يواكب نشرها الاحتفال بعيد ميلاده الثانى والثمانين. فلينعم بالصحة والعمر المديد.

شحسات صادق نوفمبر ۱۹۶۶



بين زرقة السماء وخضرة البحر، كانت السفينة تتجه إلى المرفأ في خط مستقيم، يرفرف فوقها علم الوطن ذو اللونين الأخضر والأصفر (١).

كانت الثالثة بعد الظهر. الهواء ساكن وحرارة الجو مرتفعة. وعلى متن السفينة، بين الفرنسيين والإنجليز والأرجنتينين واليانكي (٢)، كانت البرازيل كلها موجودة وصيحات (مرحباً بالكرنفال!).

إقطاعيسون أغنياء عائدون من أوربا حيث جابوا الكنائس والمتاحف، ودبلوماسيون تذكر هيئتهم بعارضى الأزياء. سياسيون سمان أغبياء مع بناتهم النحيفات الساذجات وأولادهم الدكاترة الأغبياء.

وفى الخلف كانت فرنسية جميلة تملى عينيها من روعة مياه البحر. مغامرة متدربة حتى ليقال: إنها تعرف كل البلدان وكل الأجناس، وبما يعنى بالتالى أنها نعرف كل أنواع الرجال. كانت تبتسم فى تسامح لحفنة من الأبناء الحالمين لبعض العائلات البرازيلية والأرجنتينية الثرية:

⁽١) علم البرازيل (للترجم).

⁽٢) اسم أطلقه الإنجليز على المستعمرين المتمردين في نيو إنجلاند، ثم أطلقه الجنوبيون على الشماليين، ومنذ ذلك الوقت والاسم يطلق على سكان الولايات المتحلة الأنجلو ساكسون. والمقصود به هنا هو الأمريكي الأبيض. (المترجم).

- _ إنك جميلة يا آنسني...
- _ إننى أيذل حياتي من أجلك...
- _ إشارة منك وألقى بتفسى في الماء!
- _ أود أن تغرق السفينة لأبرهن لك عن مدى حبى...

كل ذلك قيل بفرنسية ركبكة أثبارت حسد الشبان الذين يقرأون «ديكوبرا»، والذين يكنون لـ «تيرادنتس» (١) عاطفة وطنية.

كان الجميع يتصببون عرقاً في ملابسهم السميكة الأنيقة المصنوعة في باريس ولندن بأثمان غالية، ماعدا الفرنسية التي كانت ترتدى فستاناً بسيطاً من الموسلين الأبيض. كانت جميلة حقاً. عينان خضراوان بلون البحر وبشرة شديدة البياض. فلا غرابة في أن يعبر لها هؤلاء البرازيليون والأرجتتينيون الاستوائيون عن فصاحتهم العزيزة على الوطن.

فى مقدمة المشهد كان هناك أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وإقطاعى، وأسقف، ودبلوماسى، وزوجة عضو مجلس الشيوخ، يتجاذبون أطراف الحديث فى طمأتينة برجوازية لأولئك الذين يمتلكون عملكة الأرض ولديهم ثقة فى قدرتهم على شراء عملكة السماء قال الإقطاعي:

- ـ نعم، إن المحصول وفير ولكن الثمن...
- إيه ياكولونيل (٢)، أتريد أن تجملني اصتقد...؟ حسني بهذا الشمن فإن البن

⁽۱) هو طبیب أسنان كسما یعنی امسمه (تیرادنتس) واسسمه الحقیقی اچواكیم خوسیه داسسیلفا شافییه (۱۷۶۳ ـ ۱۷۶۳)قاد ثورة ضد البرتغالین فقبضوا علیه و أعدموه ـ (المترجم) (۲) وكولونیل ، من الألقاب الشرفیة فی البرازیل. (المترجم)

سيستمر في تحقيق أرباح خيالية... إنه ثروة «سان باولو» (١) وثروة البرازيل. اندفعت زوجة عضو مجلس الشيوخ في حماسة شوفينية:

- ذلك بالتحديد لأن البرازيل هي «سان باولو».

- أوه، سيدتى! معنرة إن كنت لا أشارك سيادتك الرأى، لكن... كان الدبلوماسى هو المتحدث. فيهو سكرتير السفارة في باريس، ومع ذلك لم تترك أول وظيفة له في خدمة الوطن أى أثر عليه. لقد ولد في «باهيا» (٢) يحمل في دمه وفي شعره أمارات فسوق أسلافه البرتغاليين مع جداته الأفريقيات.

- ولكن هناك ولايات أخرى كبيرة... انظرى (باهيا». سيادتك، إن (باهيا» تنتج كل شئ... كاكاو، وتبغ، وفاصوليا سوداء. وتنتج أيضاً رجالاً ياسيدتى، عبقريات كبيرة... (روى باربوزا» (٣) كان باهيانياً...

- ولكن اليوم يا دكتور (¹⁾...

_ أوه، سيدنى، لاتقولى لى... اليوم أيضاً هناك مواهب كبيرة... أمّن الأسقف قائلاً:

_ إن الدكتور نفسه هو البرهان...

_رفقاً غبطة الأسقف... إن الكنيسة دائماً ذات إحسان..

لخص عضو مجلس الشيوخ، بما يعطيه مركزه من سطوة، مجمل المحادثة على النحو التالي:

⁽١) قسان باولو؟ العاصمة الاقتصادية للبرازيل. (المترجم)

 ⁽۲) قباهياً: ولاية برازيلية في الشمال الشرقي، وعاصمتها مدينة سلفادور على الأطلنطي.
مسقط رأس الكاتب (المترجم)

⁽٣) ﴿روى باربوزا»: أديب وسياسى بارز، نال شبهرة كخطيب مفوه. وهو أكبر برلمانى وضع بلاغته في خلعة العدالة الاجتماعية. (المترجم)

⁽٤) دكتور، من الألقاب الشرفية في البرازيل. (الترجم)

_ إنها البلد الأكبر مستقبلاً في العالم!

قال شاب جاء للتو:

- بالضبط: لقد أجاد السيد تعريف البرازيل (ابتسم عضو مجلس الشيوخ ابتسامة عريضة). فالبرازيل هي البلد الأخضر بلا منازع، المفعم بالمستقبل وبالأمل... الأمر لايتعدى ذلك أبدأ... فانتم البرازيليون. شيوخاً أو شباباً، يامن كنتم تمثلون أو مازلتم تمثلون أمل الوطن، إنما تحلمون بالمستقبل. «ستكون البرازيل في مدى قرن أول بلد في العالم». أراهن أن هذا المؤرخ الكريه» بيروفاز ديه كادينيا» قال هذه العبارة ذاتها عندما وجد (كابرال» (١) بالمصادفة البلد الذي جاء ليكتشفه عمداً.

احتج الدبلوماسي. واضعاً يده على صدره بحركة مسرحية:

- إن كل أجنبى يعرف اليوم بفضل سلكنا الدبلوماسى - وبلا تواضع - البرازيل العظيمة الشهيرة!

- وبالانتظار، فإن هذه الفرنسية الشابة التي عرفت العالم كله، وكان لها ماخوراً في بكين، واتخذت من الزنوج عشاقاً في مستعمرة «الكاب» (٢) وربحت أموالاً في «مونت كارلو» (٣)، تعتقد أنها تبحر باتجاه بلد يدعى «بوينس أيريس» وعاصمته هي البرازيل، المدينة التي يرتدي سكانها التنورة. وأستطيع أن أؤكد لك ياسيدي أنها ذاهبة إلى هناك لتتمكن هي نفسها من ارتداء التنورة، لأنها من أتصار الحياة المدائية.

⁽۱) بينوو ألفاريس كابرال، ملاح برتغالى استولى على البراؤيل لحساب البرتغال في ٢٢ أبريل ما ١٥٠٠ (المترجم)

⁽٢) مسلينة بأقصى الجنوب الغربي لجنوب أفريقيا، وميناؤها المعروف بنفس الاسم يطل على المحيط الأطلنطي (المترجم)

⁽٣) مدنية بإمارة موناكو بها كازينو القمار المشهور. (المترجم)

- إنها خليعة، هذا مؤكد.
- سوف تصاب المسكينة بالإحباط!
- ولكن يا دكستور (ريجسيه)، من وجمهة نظر دينيـة على الأقل، فإن البــرازيل شهدت تقدماً كبيراً. واليوم...

- اليوم، تسود الخرافة. في الشمال، الدين ياسيدي عبارة عن خليط من عبادة الأوثان، واستحضار الأرواح، والكاثوليكية. ومن ناحية أخرى، فإنني لا اعتقد أن المسيح قبد جاء بدين. لقبد كان المسيح مجرد يهودي رومانسي ثائر. أنكم أنتم معشر القساوسة والبابوات من تصنعون الدين... ولكنكم إذا ظننتم أن هذا الدين هو السائد في البرازيل، تكونون مخطئين. فهناك تحريف إفريقي لهذا الدين. فالمالكومباه (١) في الشيمال تحل محل الكنيسة التي حلت محلها في الجنوب محافل مناجاة الأرواح. إن مسألة الدين في البرازيل هي مسألة خوف.

رسمت زوجة عضو مجلس الشيوخ، التى بدا عليها الاستنكار، علامة الصليب. بينما رسم الدبلوماسى على شفتيه ابتسامة فارغة. أما الأسقف الذى كان ذكياً فقد أراد أن يحتج ولكن الوقت لم يسعفه، فقد دق شاب من عمال السفينة ناقوساً ضخماً معلناً عن موعد الطعام، وأطاع الجميع سلطان المعدة.

* * *

على سطح السفينة، استغرق «باولوريجيه» في أفكاره. ها هو صائد إلى البرازيل بعد سبع سنوات من الغياب. عندما كان لا يزال في المدرسة الثانوية، فقد أباه الذي كان من أغنى إقطاعيى الكاكاو في جنوب ولاية باهيا: كانت آخر رغبة لريجيه العجوز أن يذهب ابنه ليتعلم في أوروبا. وهكذا ما إن أتم باولو دراسته

⁽١) «الماكسومباه: طقس دينى يمارس خسلاله الزنوج الرقص والغناء على قرع السطبول وهو أشسبه شيء بالزار عنلنا (المترجم)

الثانوية حتى اتجه إلى باريس من أجل الحصول على درجة الليسانس. لقد آراد ريجيه العجوز أن يحصل ابنه على شهادة. فقد كان الحصول على درجة علمية من البرازيل أمر تافه للغاية، فلا مستقبل إلا لحاصل على الدكتوراه من أوربا.

وفى باريس، وكأمر طبيعى، فعل باولو ربجيه كل شئ إلا دراسة القانون. وعندما حصل على الشهادة، أصبح متبرماً وقد لوثته كل آداب ماقبل الحرب وبسبب روحه المتوثبة، كان له أصدقاء بين المثقفين، يغشى أوساط الصحفيين، يردد عبارات رنانة فارغة، يتناقش ويأتى دائماً بالنقيض. كان الموقف المضاد موقفه دائماً. لم يتوصل، وقد أصبح فرنسياً أكثر من الفرنسيين، إلى إبجاد أساس لجياته. لم تكن له فلسفة معينة، فهو يسخر من روح الجد عند الجيل الجديد ويقول إن الإنسان الموهوب ليس في حاجة إلى فلسفة.

كان فى السادسة والعشرين شخصاً عقى لانيا، يتفرج على الحياة، غير مكترث، وكان قد فقد، منذ وقت طويل، الحس الدينى والإحساس بالوطن. كان بارداً لا يتأثر. كانت له ملذات شتى: يحب معارضة أفكار زملائه، وكان لديه ميل إلى دراسة النفوس.

· طاف بكل أنحاء باريس، من أكثر الصالونات ارستقراطية إلى أحقر الكباريهات، مدفوعاً بشهوة التنقيب في النفوس وتعرية العواطف ودراستها...

وهكذا كان يعتقد بأنه إذا حدث فى يوم أن تعرضت حياته لمغامرة فإنه ميكون مستعداً لمواجهتها ودراستها وتشريحها. كان يلبس نظارة أحادية العدسة (مونوكل) لأنه قيل إن هذا النوع من النظارات قد تخطته الموضة. تعلم فى باريس أن يتأنق فى ملبسه وأن يشبع كل ملذاته.

وكمنغسمس فى اللذات، كان شبه مفتون بغرائزه. فقد جرّب كل الموبقات. وكان بنظرته المتعبة الحزينة يبدو كإنسان هجر كل الشهوات دون أن يشبعها. وكانت تسبح على شفتيه الرقيقتين ابتسامة مريرة ساخرة تثير القلق. لم يعد «باولوريچيه» يؤمن بالسعادة، ومع ذلك فهو يشعر فى دخيلته بأنه غير راض. كان يشعر أن حياته ينقصها شئ. ما هو هذا الشئ؟ إنه لايعرف. وكان ذلك يعلبه. لقد كرس كل حياته للبحث عن غاية. كان يتمتم، على سطح السفينة، ناظراً للبحر: «نعم، لأن كل حياة لابد لها بالضرورة من غاية... ولكن ما هى؟» لكن البحر لم يأبه له، ولم يجبه. كانت الشمس للحتضرة ترسم فى الأفق مناظر ذات ألوان ملتهبة. إن الشمس هى أول التكعيبيين فى العالم...

* * *

وفى أثناء العشاء، ابتسمت له الفرنسية الشابة. كان فى ابتسامتها وعد فتان برغبات مجنونة. أخذ باولوريجيه يتخيلها عارية. لابد أن تكون رائعة... هذه المرأة الناضرة، لابد أن تكون ناعمة. أقسم أن يتعرف بها. كانت على حافة السفينة تبتسم بسذاجة من لعب الأمواج البرئ. اقترب «باولوريجيه».

- _مدموازيل...
- ــ لا لست مدمواز يلاً بل «جولي».
 - ـ آه (چولي)، إنك رائعة!
- _ أهذا كل ماتقوله لى؟ إنه نفس ما قاله لى كل هؤلاء الأولاد وهم يغازلونني توأ. لقد ظننت أن لديك شيئاً جديداً تقوله لى...
- بالتأكيد. أريد أن أقول لـك إن عينيك تعد بأشياء غير معقولة، ولكننى أعرف كل الأشياء اللا معقولة، وأشك في أنك ستمنحينني شيئاً جديداً.
 - ـ اليوم، في الساعة الواحدة، سيكون باب قمرتي مفتوحاً.. سأنتظرك.

* * *

راح باولوريچيه في قمرته يتساءل عما إذا كان عليه أن يذهب إلى چولى ا

كان الإعياء يسيطر على أعضائه، إنه يفكر في چولى، إنه خائف من عينيها. لا، لن يذهب. فهذه المرأة لديها القدرة على الالتصاق به كالجرب في البرازيل. وفوق ذلك، فإنها مجرد عاهرة مشهورة. إمرأة تمارس الحب من أجل المال، دون حب. ما الجديد الذي تستطيع أن تعطيه إياه؟ اللذة، إنه يعرفها. الشهوة... لكن الحب ليس شهوة فحسب. ربما يكون شيئاً أكثر من ذلك... هذا الشئ الآخر لايعرفه. كان يجزم بعدم وجوده. وسواء كان موجوداً أم غير موجود، فإن الفرنسية الشابة لاتستطيع أن تمنحه إياه. إنها تعطى جسدها فقط... وبنفس الطريقة دائماً، كما هو الحال. نفاهات! لا. لن يذهب...

انتظرت چولى طوال الليل عارية، تحلم بلذات لاحدود لها. وكانت تبكى من الغيظ، وتعض وسادتها... وفي النهاية شتمته، إنه حيوان. ألا يعلم أنها ادخرت له المداعبات التي لم تبعها قط لمخلوق... مغفل!

وكان باولوريچيـه يحلم بأن له حبيبـة رومانسية تقرأ كـتابات «هنرى آرديل»، وتعزف على البيانو فالسات عاطفية.

وفي اليوم النالي كانت صيحة الاكتشاف:

- البر! البر!

وفي البعيد، لاحت بلاد الكرنفال.



كان باولوريچيه متكاً على نافلة الفندق، يقرأ صحف الغد. كان في ريوديه چانيرو، ومع ذلك، كان يشعر أن عاصمة الجمهورية لم تكن البرازيل. لقد جاب كثيراً من المدن الكبرى في العالم. ولم تكن هذه لمدن تخص بلداً بعينه، بل كانت مدناً عالمية. فباريس ولندن ونيويورك وطوكيو وريوديه چانيرو تخص كل البلاد، وكل الأجناس. كان باولوريچيه يطوق إلى التوغل في الداخل، نحو «بارا» و ماتو جراسو»، وأن يشعر عن قرب بروح الشعب الذي هو في النهاية، شعبه كلا، ليس شعبه... إن شعبه ليس هنا فتربيته الفرنسية كانت تصرخ فيه بأن شعبه منالك في أوربا. كان يتذكر أن البرازيليين في باريس كانوا يطعنون في وطنهم أما هو، وبروح المعارضة فكان يمتدح وطنه. وكان المسافرون على سطح السفينة، أما هو، وبروح المعارضة فكان يمتدح وطنه. وكان المسافرون على سطح السفينة، يكون فكرة عن البرازيل. في أوربا، وفي الساعات التي كان قناع العقلاني يسقط عنه، كان يفكر في اللحظة التي يعود فيها إلى الوطن، ويحلم بأن ينخرط في السياسة، ويؤسس صحيفة تعلى من شأن البرازيل...

كانت وطنيته اللحظية تثير سخرية أصدقائه، وتجعلهم يداعبونه، فكان يعتذر بأن كل ذلك كان بدافع الأنانية. كان يريد أن يعلى من شأن وطنه، وبالتالى، يعلى من شأنه هو «باولوريجيه». مجرد وسيلة... ولكن في دخيلته كانت الأنانية علاه...

كان أصدقاؤه بوافقونه. فالوطن لم يكن بطبيعة الحال هو الغاية...

لم تكن الصحف تتحدث إلا عن الحملة السياسية التي تهز البلاد. ففي جانب، كان رئيس الجمهورية، الذي يستند إلى عدد معين من الولايات، يريد أن يفرض مرشحاً من اختياره ليخلفه في السلطة، وفي الجانب الآخر، كانت ولايات المعارضة تريد انتخاب رئيس بإرادتها.

قرأ «باولوريچيه» في إحدى الصحف: الايزال هناك برازيليون يعرفون كيف يموتون في سبيل الحرية» كانت هذه الكلمات المطبوعة بحروف كبيرة مقتطفاً من خطبة لأحد نواب المعارضة.

ابتسم ريچيه:

ـ يالها من ميتة غبية، الموت كفاحاً من أجل حرية الوطن...

كان خادم الفندق الذي دخل بطعام الإفطار يتمتم:

- هذا الشخص من أنصار ابرسسي...

بعد أن قدم له الطعام (وبعد أن داعبت أذنيه خشخشة نقود البقشيش).

أخذ بمتدح مناقب الدكتور اخوليو برستسا. وسط دهشة ريجيه.

* * *

أخذ باولويچيه يسير فى الشارع على غير هدى. يشعر أنه غريب فى وطنه. كنان يجد كل شئ مختلفاً... إذا كنان يشعر بذلك فى ريوديه چانيرو فكيف سيكون الحال فى (باهيا) عندما يذهب ليستقر بصحبة أمه العجوز؟...

هل سیستطیع العیش هناك؟ وألم به حنین جارف إلى باریس... یجب أن یعیش بطریقة برجوازیة... لن یكون له زملاء مثقفون... سوف یتفتح ذهنه... وربما يتزوج... وربما يذهب ليسكن في المزرعة... يالها من نهاية بالنسبة له، أفسدته الحضارة وأمرضته... المهم...

توقف باولوريجيه أمام محل للاسطوانات. كان صوت «المارش» الصاخب يملأ الفضاء بموسيقي غريبة شجية مفعمة بالمشاعر التي لايفهمها باولو.

كانت كلمات (المارش) تقول:

منذ زمان وهذه المرأة تستفزني...

إضربها...

إضربها...

فكر باولوريجيه:

- لابد أن هذه هي الموسيقي البرازيلية. الموسيقي العظيمة للبرازيل.

وظل ينصت مـأخوذاً ببربرية الإيقاع. لابد أن تكون روح الشعب هنا... ولما كانت مختلفة عن روحه... لم يكن قط ضرب إمرأة. كانت الأغنية تزعق:

إضربها...

إضربها...

ثم واصل طريقه. وعلى مبعدة قابل الدبلوماسي.

ـ أوه، دكتور ريحيه ! في نزهة، أليس كذلك؟

ـ فعلاً. أقوم باكتشاف ريو...

- ألم تكن قط في العاصمة، يا دكتور؟

_ كلا. عندما ذهبت إلى أوروبا أبحرت من باهيا. ولكنى هذه المرة اعتزمت أن أعود إلى هنا خصيصاً لاكتشف ريو...

- وهل أعجبتك؟ نعم، بطبيعة الحال، كما أخمن. إنها الطبيعة يا دكتور، اليس كذلك؟ الطبيعة الساحرة.. أجمل شئ في الوجود.

_ ولكنى أعتقد أن الطبيعة تسبب ضرراً بالغما للبرازيل. فالانسمان هنا يبدو كسولاً متراخياً... لابد أنها الطبيعة... بكل عظمتها، تسبب الضرر. إنها تسبطر وتسحق.

ـ نعم. ربما... ولكن. لقد كان للبنا عظماء يا دكتور. روى باربوزا... كان باولوريچيه قد قرأ لروى باربوزا. لم تمتعه قراءته... بلاغته صاخبة... ولم يفهم كيف يعجبون بهلنا الرجل... وفوق ذلك، ليست لديه أفكار... ذو نزعة وطنية بلهاء... ومضجرة. كلا، من المؤكد أن ليس لديه ما يشغل باله بروى باربوزا هذا.

قال الدبلوماسي «خوسيه آوجستو داسيلفا رييس» مستنكراً:

- إن روى عبقرى... عبقرى... عبقرى إلى أقصى الحدود... حتى فى فرنسا يعجبون به.

ـ في فرنسا؟ جائز...

- والقانون؟ إن قليلين من يعرفون الـقانون مثل روى. والمتصب الـذى يشغله في الاهاى؟؟

ـ إن معرفة القانون لاتحتاج لموهبة. الذاكرة تكفى...

قابلا أحد الباهيانيين. نائب من جنوب الولاية. إن رأسه الصغيرة وأذنيه الكبيرتين يدلان على غباء وراثي.

قام خوسيه آوجستو بالتعارف:

دكتور أنطونيو راسوس، نائب من باهيا. دكتور باولوريچيه الذي عاد من فرنسا. إنه ابن جودو فريدو الكبير..

ـ أوه كم أنا سعيد بمعرفتك... فنحن أبناء يلد واحد.

عقب خوسيه أوجستو:

ـ نحن أبناء ثلاثة بلاد...

جلسوا في إحدى الحانات لتناول مشروب فاتح للشهية. اقترح النائب أن يكون على شرف باهيا. دار الحديث عن حملة الانتخابات الرئاسية. كان النائب من أنصار (برستس).

- آه! إن ما يريده الرعاة هو السلطة ... السلطة فقط... لايهمهم لا وطن ولاشئ.

أكد خوسيه آوجستو:

ـ معك الحق يادكتور، كل الحق...

ثم ويصوت خافت سأل النائب:

ـ والمشروعات يا دكتور؟ في تحسن مستمر، أليس كذلك؟

- أحياناً... الآن تسير الأمور إلى أسواً. لا فائدة من أن يكون المرء نائباً... ولكن في الوقت الراهن، كل جهدى مكرس للوطن. بل إنني سألقى خطبة ضد المعارضين... يبحب أن تحضرها. مسوف تكون خطبة مميزة. ثم وجه الحديث إلى باولو:

دكتور ريچيه، تعال لزيارتي. أريد أن أقدمك إلى زوجتي. إنها تعشق باريس، وتريد أن تتعرف بك. إن زوجتي سيدة فاضلة...

تابع باولوريچيه بعينيه النائب يبتعد في الشارع: كان النائب يلقى التحيات ذات اليسار وذات اليمين، بكثير من البهجة، على طريقة السادة الكبار.

قال خوسیه أوجستو مفسراً: إن ذلك الرجل مغفل... فهو یمارس السیاسة لأنه تزوج ابنة رجل ذی نفوذ. إنه لا یعدو أن یکون صهر السید فلان. وفی مقابل ذلك، فإنه يترك زوجته تفعل ما تشاء... أما هی فلا تساوی شیئاً. ولیس لدیها أی احتشام...

- هل كل النواب من نفس العجينة؟
- كلهم. طغمة. لصوص... ليس لديهم وطنية حقيقية. تصيد وقح.

إن ما يلزم البرازيل هو الشورة. لقد كنت ثائراً دوماً فالثورة هي السي سوف تقطع رأس الكثير من السياسيين، وهي التي سوف تسدد الديون الخارجية، وتدخل البلاد في طريق الرخاء...

- ولكن يبدو لى أن السياسيين في المعارضة. هم كذلك نسخة طبق الأصل.

- إنهم متشابهون! ولكنتى علمت من صديق قديم أنه سيصبح وزيراً للخارجية... وسأكون أنا مفوضاً! الثورة، الثورة... هل قرأت اليوم خطبة زعيم المعارضة في الصحف؟ «ما يزال هناك برازيليون يعرفون كيف يموتون من أجل حرية الوطن». كأنها خطبة لروى... إنني من هؤلاء البرازيليين...

- أما أنا فأجد من الغباء أن يموت المرء من أجل الحرية ... غباء تام ...

ـ ذلك لأنك لست وطنيــاً... الموت من أجــل الحرية ومن أجــل... المفوضــيـــة. ضحك متهكماً. وضحك باولوريچيه أيضاً وهو يتمتم: - الأنانية سيدة العالم، سيدة العالم...

مرصبية يبيعون صحف المساء صائحين:

- إقرأ النواتى، الجلوبو، اللياريو، دياريو، نواتى، جلوبو... اخطبة النائب فرانشيسكو ريبيرو. حملة انتخابات الرئاسة. الكرنفال على الأبواب... الكرنفال... النواتى...»

وفى الخارج، كانت الجماهير تتدافع فى بهجة واضحة. كانت المحلات التجارية تغص بالناس يشترون الملابس وحلى النساء الرخيصة. لقد كان الكرنفال على الأبواب.

قال دريجيه):

- البرازيل هي بلد الكرنفال.

وأضاف فخوسيه أوجستوا:

- والعظماء! والعظماء...

ابتسسم بفخسر، ودفع ثمن المسروبات، ونهض ليسلهب لمقابلة النائب افرانشيسكو ريبيرو، الذي مرفى هذه اللحظة بالتحديد، ليقدم له تهتئته على الخطبة العصماء».

- بلد العظماء...العظماء... والكرنفال...

وفي بهو الفندق، كانت مفاجئة في انتظار باولوريچيه .كانت اجولي، هنالك تقرأ بمجلة. أراد أن يمر بسرعة دون أن يحييها، لكنها لمحته ونادت عليه:

- إنني جد غاضبة منك...

- لقد كنت مريضاً .،وأمضيت ليلة صعبة... ولهذا السبب لم آت. اعذريني.

تناولا العشاء سوياً، بل وأكثر من ذلك، لقد رقدا معاً. وظل باولوريچيه مشدوداً إلى چولى. فهذه المرأة المفعمة بالجنس والرغبة قد استحوذت عليه. قال لتفسمه: إنه يريد أن يعرفها تماماً، وأن يدرس نفسيتها. وأخذ يحيا، بين بياض ذراعيها، عاطفة مشبوبة. أظهر كلاهما مجهودات جبارة ليعطى للآخر شيئاً جديداً. تحابا هذان الماجنان بضراوة. قررا أن تنذهب معه إلى باهيا ليعيشا غرامهما.

سألها ذات يوم:

- _ أتحبينني؟
- _ أحبك...
- ـ مثل كل الآخرين، أليس كذلك؟
 - أأنت غيور؟ باللعجب...

كلا، لم يكن غيوراً، ولكنه يريدها له وحده، وألا تكون لانسان آخر. لنفسه فقط... كلمة.

وضع على الفونوغراف اسطوانة يحبها كثيراً. كانت الأغنية تقول:

في بيت الكابوكلو (١)

واحد قليل

⁽۱) الخلامى المولود لأب أبيض وأم زنجمية أو السعكس. واللفظ يطلق داخل البرازيل ليسدل على الفلاح الفقير بصرف النظر عن أصله العرقى. (المترجم)

اثنان معقول

ثلاثة كثير...

كان يشرح لها ما تقوله هذه الأغنية البرازيلية.

ـ هل تشك في؟

أبتسم بحزن:

ـ كلا، بل أشك في نفسي...

* * *

وفى المساء الذى خرج قيه ليستمتع برؤية المدينة، جعله الضجيج المصم يفزع. رأى الشوارع تغمص بالناس، والسيارات تمر محملة بالفتيات المتنكرات. جنون عام...

أيقن باولو ريچه أنه سبت الكرنفال. استقل سيارة، وأخذ يتتبع سيارة تغص بالفتيات. كن البنات العفيفات لأحد الكتاب الأخلاقيين المتهوسين. رش ريچيه على أجملهن قبليلاً من زجاجة العطر. انفجرت في ضحك هستيري. ثم ذهبا للرقص. جعلها زحام القاعة، والرقصة التي تقربهما، تغيب عن الوعى. قبلها كثيراً ولامسها كثيراً. لاحظ أن الجميع يقبلون بعضهم البعض ويتلامسون.

هذا هو الكرنفال... الانتصار المطلق للغريزة وسيطرة الجسد...

صاح باولوريچيه:

_ يحيا الكرنفال!

وردت القاعة كلها:

_ يحيا الكرنفال!

وأخذت الآنسة العفيفة تلتصق به أكثر.

* * *

عندما خرج باولو ريجيه كانت جماعة من الخلاسيات يرقصن «السامبا» في الشارع. بشرتهن بلون القرقة. كن يهززن أردافهن في هياج وخلاعة. شاهد باولو هناك كل مشاعر الأجناس، ورأى نفسه يندمج في شعبه، واستغرق في السامبا صائحاً:

إضربها

إضربها

الصقت خلاسية سمينة بطنها به. تشابكا بالأيدى واستمرا في الرقص في الشارع. حتى حازفي الجيتار كانوا يرقصون الساميا في بهجة محمومة كمن لم يمنح حريته إلا منذ ثلاثة أيام.

كانت الخلاسية تضغط بشفتيها على شفتى باولو ريجيه.

ود لوصاح: «تحيا البرازيل! تحيا البرازيل!» كان يشعر أنه اندمج في روح هذا الشعب. ولم يفكر بأنه في خلال الكرنفال فقط، يستسلم الجميع ـ مثلما ـ يفعل هو طوال حياته، لغرائزهم، ويجعلون من الجسد إله الإنسانية... عندما وصل إلى الفندق، كان النهار قد أشرق، واستيقظت الطبيعة كلها غريبة وسط هليان تلك الليلة. وفي الغرفة لم يجد چولي. لقد خرجت بطبيعة الحال. لقد ذهبت إلى الكرنفال.

حاول أن يضحك. هيا، ما الأهمية!... إنها في نهاية الأمر مجرد أمرأة قضى معها بعض الوقت. ما الأهمية...

باللشيطان ا إن ذلك يؤله. إن التفكير بوجود چولى مع رجل آخر في الفراش بؤلمه. كلاء إن ذلك مستحيل، لماذا؟ إنها مع

آخر... مع آخر في القراش... ولكن ما دخله بذلك؟... إنه لا يحبها ... ألا يحبها فعلاً؟ كلا، إنه يريدها فقط ولكن الحب هو الامتلاك... إذا كان يرغب فيها فلأنه يحبها... نعم إنه يحب هذه المرأة الماجنة، ولابد أنها الآن مع آخر، ربما... وترقد معه، من يعرف؟ إنها طبعاً لا تحبه.

بدت له الغرفة خالية بدونها... وبدا له الفراش بدون جسدها الأبيض لايطاق...

苯垂烯

بعد مرور بضعة أيام. قدمه خوسيه آوجستو إلى كاتسب كاثوليكي. إنه زعيم الكاثوليكية على هذه الأرض. أبدي الكاتب خلال المحادثة صدقاً جعل باولو يعجب به. طلب من ريجيه أن يساهم في مجلته. كان يريد انطباعاته عن الأجناس. ووعده باولو. وبعد عدة أيام أعطاه قصيدة (الخلاسية المجهولة):

«أنشد كلاسية مواخير سان سباستيان من ريوديه چانيرو... الخلاسية التى بلون القرفة، والسي لها تقاليد واعتنزاز وطيبة، (هذه الطيبة تجعلها تفتح فخذيها الخلاسيين الممتلئين الأملسين لإشباع الغرائز النهمة للشعراء المساكين والطلاب المتشردين).

فبين فخذيها المقدسين يستريح مستقبل الوطن، ومن هناك يخرج جنس قوى، حزين، خشن، جامح، ولكنه في أعماقه عظيم، لأنه طبيعي للغابة، ومضعم بالإثارة.

لذلك أيتها الخلاسية العطرة لبرازيلنا الافريقية (البرازيل هي تجمع أفريقي مهاجر إلى أمريكا)، لاتكفى عن فتح فخليك للغريزة النهمة للشعراء المساكين والطلاب المتشردين في هذه الليالي الحارة للبرازيل عندما تكون نجوم كثيرة في السماء، وعلى الأرض كثير من الشهوات.

قال الكاتب إن القصيدة جيلة وصادقة.

ولكن القصيدة لم تنشر. لأنها تسئ إلى الأخلاق البرازيلية...



في الحانة، كان بعض الشباب يجلسون إلى المائدة، يثرثرون. وفي الشارع، كانت المصابيح الكهربية تلقى بخطوط من الضوء على الظلمة المحيطة. وعند مفترق الطرق، كانت زنجيات سمينات يبعن «الأكاراچيه» (١) و «المينجاو» (٢). وفي ظلال الليل بدت باهيا كأطلال حضارة بدأت لتوها في الازدهار.

وضع دريكاردو براس القبعة على رأسه وقال:

_ أنقوم بنزهة يا جماعة؟

اعترض الحيرونيمو سواريسا:

_ كلا. علينا أن ننتظر اتبسيانوا.

_ولكن الساعة الآن التاسعة. ومن المحتمل ألا يأتي (بيدروتيسيانو) إنه يشعر بالتمب سريعاً في الأيام الأخيرة...

أعلن صوت من خلف ريكاردو:

⁽١) طبخة شعبية تصنع من هريسة الفاصوليا مضافاً إليها التوابل وتقلى في زيت النخيل على هيئة أقراص. وهي أشبه شيء بالطعمية عنلنا. (المترجم)

 ⁽۲) للينجاو: نوع من الحلوى الشعبية على هيئة العصيساة تصنع من دقيق للانيهوت واللبن.
(المترجم)

- ولكن من أجل الأصدقاء، لابد من التضحية!
- أوه! تيسيانو! إنك ... إنك أتيت فقط لتكذبني.
 - خبط چيرونيمو على المنضلة منادياً فتاة المقهى:
 - احضري قهوة ياحيييتي.
 - وطلب اجوميزا (وهو مدير لصحيفة رديئة):
 - ـ وماء. كوب ماء...
 - أخذ تيسيانو كتاباً من يدى (جيرونيمو).
- إيه باولد! أتقرأ الآن (خوسيه ديه الينكار) (١)؟
 - إننى أعيد قراءته. «آلينكار» بعجبني كثيراً...
 - ـ إنه شاعر جيد... شاعر جيد..
 - ۔ شاعر؟...
- ـ نعم، شاعر. إنه ﴿إيراسيما قصيدة جميلة منجانسة. ولكن آلينكار رواثى ردئ...
- لم يوافق «ريكاردوبراس» على هذا الرأى، فقد كان يجد آلينكار ذا مواهب. ربما لايكون روائياً كبيراً، ولكن قراءته عمتعة.
- ـ روائى لتلاميـ المدارس الداخلية وللأغبياء عمن يفخرون بدمائهم الهندية... في هذه اللحظة، دخل «خوسيه لوبيز» مصطحباً رجلين.
- (۱) خوسيه مارتينياو دبه آلينكار: كاتب وسياسي برازيلي، ولد في سيارا (۱۸۲۹ ـ ۱۸۷۷)، رائد الرواية التاريخية، من أعماله: «جوارانا»، «إيراسيما». (المترجم)

- تيسيانو، أريد أن أقدم لك السنيور «خوسيه آوجستو»، السكرتبير الأول بالسفارة في باريس. هذا بيدرو تيسيانو.
 - ۔ تشر فنا…
 - _ إنني أعرفك من الاسم... فاسمك مشهور في ريو...
 - _ هذا لطف منك...
 - كان تيسيانو يمقت مراسم التعارف.
 - _ الذكتور ريچيه، محام.
 - ـ بيدروتيسيانو صحفى على هامش الصحافة...
 - مد كلاهما يده إلى الآخر مصافحاً.

كان بيدرو تيسيانو في ذلك الوقت يناهز الرابعة والستين. صحفى قديم، وكان في نهاية المرحلة الأخيرة من حياته على هامش المصحافة بعد أن حاز شهرة واسعة.

كان كل وجوده يتلخص في إطلاق العبارات البارعة، وتحدى النوق العام.

كان معروفاً في ريوديه چانيرو بهجائه وروحه الساخرة. ولأنه هجاء من الطراز الأول فقد احتل موقعاً هاماً في صحف العاصمة. وذات يوم أعطوه منصباً كبيراً في أحد الأقاليم. في باهيا، التي كانت فيما مضى تلقب بأثيتا البرازيلية، كان الغباء يزدهر في ذلك الوقت.

قرر بيدروتيسيانو أن يقوم في هذه الأرض الطيبة بحملة من أجل أنصار الذكاء. بدأ بمهاجمة الأجناس المهجنة. أصبح شرساً يرعب الطلاب الذين بودون

أن يصبحوا شعراء، والأدعياء الذين يوقعون المقالات الأساسية في الصحف الباهيانية.

(لأنه في باهيا، مدينة كل القديسين، وخاصة القديس ابونفيم، كل الناس مشقفون. فكل حاصل على البكالوريوس هو بالضرورة كاتب. والطبيب الذي يكتب بحثاً عن مرض الزهري بطلقون عليه، على الفور، شاعراً، والقضاة يطلقون على أبحاثهم آراء أدبية، لم توات أخد الشجاعة لمناقشتها)

* * *

كان بيدرو يتسيانو يقول إن كل الأغبياء في باهيا يعتبرون أنفسهم شعراء. وأعظم سادة المدينة شأناً إذا لم تنشر له أبيات رديئة في مجلات أنيقة ستجده قد شخبط قصيدة من أربعة أبيات يحتفظ بها في قاع درجه. وبدأت كراهية يبدرو تبسيانو. أخلت الصحف تقفل أبوابها في وجهه شيئاً فشيئاً.

كتب فى إحدى المرات مقالة عنيفة ضد أحد السياسيين البارزين وأُرخم على الاستقالة من منصبه. ولم يعد بمقدوره أن يعود إلى ربو فظل فى باهيا فيقيراً، لم يفز من حياته الطويلة إلا بكراهية كل الخلاسيين الباهيانيين الذين كانوا يكتبون.

أحاط به بعض الأصدقاء، عدد قليل. لعلهم آخر أصدقاء حقيقيين في حياته. كانت متعته الكبرى تتمثل في قدرته على الشك. ولم توات أعداؤه الشجاعة ليهاجمونه، لقد اضطروا للاعتراف بأن روح ابيدرو تيسيانوا أصبحت أكثر شباباً عن ذي قبل.

ومع الوقت، بدأ التناقض الغريب الذي يحمله اسمه يتكشف: «بيدور تيسيانو» اسم برجوازي صرف واسم لفنان. وكان هو يفسر ذلك، فأبوه كان تاجراً أمضى كل حياته يجتهد في جمع الثروة التي تركها له. وفي الوقت الذي كان كل الناس يعتقدون أنه شديد الثراء، كان قد أفلس ومات كمداً. أما أمه التي كانت تمتز بحس رقيق (كانت تكتب لأخواتها رسائل شعرية، وتحتفظ في غرفتها بصورة «فيكتور هوجو») فكانت ترى أن ابيدروا اسم بشع، ولكي تخفف منه، أضافت إليه اسم «تيسيانو». وهكذا جرى تعميده باسم «بيدرو تيسيانو تافاريس». وعندما كبر «تيسيانو» حذف «تافاريس». وكان أبوه يعنفه بسبب شغفه بالصحافة. كان أبوه لا يشعر بميل نحو حملة الأقلام. وكان يردد أن الشعر لا يطعم أحدا. أما تيسيانو الذي كانت له في ذلك الوقت بعض الميول الأدبية فقد حذف تافاريس من رسمه قائلاً إن أسرته لن تفيد من مجده. وأصبح فقط بيدروتيسيانو. والآن، فإنه يعتقد أن أباه كان على صواب، فالشعر لا يطعم أحداً... لا الشعر ولا النثر... فقد كانوا يشعرون أنهم متآزرون، فقد كانوا متعاضدين في البحث عن سبب وجودهم، وبعد أن عرفوا مع بيدرو تيسيانو كل المواقف المتشككة، بدأوا في خوض صراع ضد الشك. كانوا يريدون تبسيانو كل المواقف المتشككة، بدأوا في خوض صراع ضد الشك. كانوا يريدون اكتشاف الغاية. وكانوا يقولون: نعم، هناك غاية للحياة. وكان بيدرو تيسيانو

ـ نعم، هناك غاية وحيدة، هي الموت...

كانوا يلتفون حول بيدرو تيسيانو الذى فتنتهم روحه، فكانوا يستمدون منه القوة. وكانت لهم الجرأة والشبجاعة على قول كل الحقائق. وعلى الرغم من اختلاف أحدهم عن الآخر، فإن بينهم صلة قوية توحدهم.

أما «ريكاردو براس» الذي ولد في «بياوي» فقد هاجر إلى باهيا وهو بعد مراهق، ليجرب حظه هناك. نجح في الالتحاق بمدرسة الزراعة، ولكنه تركها بسبب عدم كفاية موارده. وبعد جهد، حصل أخيراً على وظيفة مكتبية، ودرس في كلية الحقوق. نشر ديوان شعر. ولأن شعره نال نجاحاً فقد بدأ يكرهه. ولأنه كان محروماً من الحنان أصبح من أتصار العاطفة. كان ظمآناً للحب.

وعندما كان يفكر في غـاية الحياة، فإنه يتمـئل دوماً فتاة ذات عينين واسـعتين حزينتين كنموذج للزوجة المثالية.

أما «جموميسز» مدير صحيفة «باهيا نوفا» _ كما تقول بطاقات السدعوة التي لاتفارقه قط _ فكان يمتلك ذكاءحاداً يعادل الأمية التامة السائدة.

كان قلد جرب حوالى خمسين مهنة، من مستخدم في أحد المحلات إلى محصل كمبيالات ميؤسى من تحصيلها.

وأخيراً، قرر أن يصبح صحفياً. غاص في منطقة السيرتاو» (١) بحشاً عن الكولونيلات رؤساء المجالس المحلية الذين كانوا يمدونه بالمعلومات عن مدنهم، ويعطونه الصور والأموال. وصدرت الصحيفة. وهو شيء كان يعتبر مستحيلاً في باهيا حتى ذلك الوقت. كانت في عددها الخامس والعشرين (ولم يكن قد صدر منها بالفعل سوى أربعة عشر عدداً). اندمج الجوميز، في وظيفته الجديدة كصحفي، الإيفارق أبداً ميجاره وحقيبته التي يوليها أهمية تاريخية.

قال ريكاردو:

م أنت نلل ابا جوميىز ، ولكنك تزهو. إنك نصاب، بلا أخلاق... احستج اجوميز ، وقد اصطبغ وجهه بلون قرمزى. وتدخل اليسيانو »:

_ إن مسألة الأخلاق هذه بلاهة فالرجل الموهوب لا خلاق له، وأنت يا جوميز موهوب. لين هناك إلا عيب وحيد لايغتفر للإنسان: الغباء. ابتسم جوميز في سعادة. وعندما تحولت المناقشة إلى عدم الرضا والبحث عن ماهية الحياة، اضطجع في كرسيه، وعبر سحب الدخان المتصاعد من سيجاره كانت تمر أمامه مناظر لمنزل جميل وسيارات ونساء وكولونيلات، كولونيلات كشيرين يحملون صناديق الأموال...

⁽١) السيرتاو: منطقة كبيرة، شبه مهجورة في شمال شرق البرازيل (المترجم).

كان الأكثر تمواضعاً بينهم يدعى «جيرونيمو سواريس». خلاسى فاتح اللون، وسيم، ساذج، بلا طموح أو زهو، إنسان تافه أراد تيسيانو أن يشكله على صورته وهيئته.

كانت لبيدرو تيسيانو أحياناً هذه الفظاظة. وكان «چيرونيمو»، قبل أن يتعرف به، يحيا في طمأنينة، دون مشاكل، في سلام من لا يفكرون ولايبذلون جهداً لكى يفكروا. ولكن تيسيانو (الذي كان يقدم نقسه كإله) سلبه صفاءه. وأصبح چيرونيمو غير راض، مضعماً بالشك، غير قادر على السير في الحياة. جعله تيسيانو يفقد الإيمان بالله، وكان يسخر من وطنيته. وأنتهى الأمر بچيرونيمو إلى أن يصبح دمية بين يديه. وكان تيسيانو يلعب بهذه الروح ويشكلها على هواه. وكان يتسم عندما يفكر بأن سعادة هذا الإنسان أو شقاءه يتوقف عليه.

وكان أكثر هؤلاء الشباب غرابة هو اخوسيه لويين الكن قد حصل على شهادته منذ وقت قليل. وكانوا يعتبرونه ذا موهبة كبيرة. وكان على عكس اريكاردو براس لايهتم بالعبارات الأدبية الرنانة أو التناقضات . كان مندمجا تماماً في الروح الجادة للجيل الطالع. كانت له مناقشات مطولة مع ريكاردو الذي يؤكد أن الثقافة مفسدة، وأن لا أحد يقرأ لكي يتثقف.

كان ريكاردو يزعم قائلاً:

ــ إننى أقرأ من أجل المتمة. فأنا أقرأ اليوم كـتاباً لأناتول*. إنه يعجبنى. وإذا كان على أن أختار غداً بين كتابين. أحلهما لأناتول والآخر (لأونامونو)، فإننى سأقرأ كتاب أناتول، لأننى واثق أن فيه متعتى.

رد خوسیه لوبیز:

^(*) أنّا تول فرانس.

- _ أما أنا فأقرأ لأونامونو.
 - _ وأنت ياتيسيانو؟
- _أنا لا أقرأ إلا للكتاب الهزليين... إنه النوع الأدبى الأكثر مأساوية .

كما لا أذهب إلى السينما إلا لمشاهدة أضلام شارلى شابلن. إنها الأضلام الوحيدة التي تؤثر في".

كان خوسيه لوبيز يطلق النكات أحياناً على أصدقائه. وكان يؤمن بضرورة محاربة الأدب المتحذلق وتقديس الإلحاد. لابد من عمل جاد، تحقيق شيء، إيجاد طريق في الحياة.

قال لجوميز وهما يذرعان شوارع المدينة:

- لابد من فلسفة...

تهكم (ريكاردو براس)، وقد جعلته المعاناة يصبح مادياً، قائلاً:

لماذا لا تنضم إلى «التومائية» (١)؟

ـ من يدرى؟ إنني ملحد صوفى... إنسان منقسم ولكنني غير راض.

كان خوسيه لوييز يشعر بأنه لم يحقق شيئاً، وكان لارتباطه العاطفى الشديد بأصدقائه لايستطيع الانفصال عنهم. فهم قد حلوا محل أسرته التى لم تكن له يوماً. لم يفز بالحرية التى يتطلبها البحث عن السعادة.

كان ريكاردو يقول له:

_ إنك نموذج الزوج الصالح.

⁽١) التومائية: نظرية توما الإكويني اللاهوتية والفلسفية (المترجم).

_ ربما، لكنني لـن أتزوج. وإذا حـدث ونزوجت فـإنني على ثقـة بأن زوجـتى سوف تخونني. لقد خلقت لأكون زوجاً مخدوعاً...

وافترت شفتاه عن ابتسامة مفعمة بالمرارة.

كان باولو ريجيه مرتبطاً بهم. وقد أصبح الآن يشارك كل مساء في مناقشاتهم المقيمة التي كان تيسيانو يطلق عليها «الجريدة الناطقة». كان يهتم بالحركات الأدبية في المدينة. اعتبر أعداء تيسيانو أعداءه، واعتبر أصدقاءه أصدقاء له.

أما خوسيه آوجستو فلم يعد يأت إلى المقهى. وخلال الأيام التى أمضاها فى اباهيا لم يكل عن ذم بيدرو تيسيانو، لسبب بسيط فهم يثرثرون بحماسة عندما يأخذ خوسيه آوجستو كعادته فى التماس الاعذار والدفاع عن «روى باربوزا».

قال تيسيانو مبتسماً:

_ في باهيا، ليس هناك سبوى قديسين اثنين: القديس «بونفيم» «وروى باربوزا»... وهي تضم أحدهما إلى قلبها بلهفة.

ثم أردف معلقاً بخيث:

_ أما أنا فلا أحب أياً منهما...

صالح باولو ريچيه:

ـ حسنا احسن جداً.

ثم ضحك كثيراً من سحنة خوسيه آوجستو المذعورة.

لم يماود اللبلوماسي الظهور. ولم يفكر فيه أحد.

* * *

في باهيا، كان باولو ريجيه يدهش لكل شيء. كانت مدينة اتوميه ديه سوزاا

تعطيه انطباعاً بأنها واحدة من هذه المدن في سبيلها إلى الانهيار، حيث يموت كل شيء، شيئاً فشيئاً، في أسف بالغ على نهابة الحياة.

كان قد وصل إلى باهيا في يوم مثير، وعلى نفس السفينة كان بعض أعضاء المعارضة ذاهبين، في قافلة للدعاية الانتخابية، يلقون الخطب في الشمال. عندما استقل السيارة مع «چولي»، كان الخطباء يتوجهون نحو المدينة. وكانت الحشود الشعبية نقتفي أثرهم. فقد كان على رأس القافلة أحد التواب يعتبرونه أكبر خطيب في البلاد. وأي برازيلي على استعداد لأن يضحي بحياته من أجل بضع قطرات من البلاغة.

اختلطت سيارة باولو بالموكب، وكان من المستحيل اختراق حشود الجماهير.

لم يضايقه ذلك بل كان يسليه. إنه شيء جديد. بالنسبة له أن يستمتع بمشهد الجماهير وحماستها. كان الموكب يتوقف كل خمس دقائق. وكان بعض الاشخاص المتحمسين يخطبون في الجماهير قائلين: «لابد من وضع بطاقات بيضاء في صندوق الانتخابات الأسود». وكان باولو ريجيه يضحك من هذه العبارة وكان من الممكن أن تفتك به الجماهير. وعلى قمة «لاديرا» فوق الجبل توقفت الجماهير للمرة السادسة. وألقى رجل مخمور خطبة وهو يجتهد في الحفاظ على توازنه. (ولكن أي تضحية لانقدمها للوطن؟).

وانطلق يهتف:

- إنتى أتحدث باسم أوباش الشوارع! أنا الناطق بلسان المتسولين والعميان المنين يطلبون صدقة، باسم العاجزين (سنده أحدهم حتى لايسقط)، باسم وحل الطرقات، والعاهرات... وبلسانى أيها المواطنون المحترمون فإنكم توجهون التحية إلى المواخير والمستشفيات وقذارة الحوارى...

رد أكبر خطيب في البلاد بتأثر على تحية العميان والعاجزين وبنات الهوى ووحل الشوارع...

كان الموكب يتزلزل من جراء التحيات والصبحات.

قال باولو ريچيه لچولي:

_ إنها بلاد الكرنفال يا بنيتي.

وشعر أنه غريب، غريب جداً عن شعبه. وبدأ يفكر أن باستطاعته أن يتوه في البرازيل...

* * 4

بعد أن ترك چولى فى أحد الفنادق (لأن چولى كانت تتبعه منفعلة فى سورة من اللذة والإثارة جعلته يفقد صوابه) ذهب باولو إلى الجارسيا، حيث تقيم أمه فى بيت ريفى كبير. لم يكن أحد فى انتظاره، ولم يخبر هو أحداً، لانه أراد أن يجعلها مفاجأة. طرق الباب وفتحت خادمة شابة. تأملها من شعرها إلى أخمص قدميها وهو يبتسم. كان قلبه يخفق بين ضلوعه فبعد سبع سنوات من الغياب سوف يرى أمه العجوز التى يحبها. أخذه التأثر وهو يتأمل الخادمة الشابة جامدة فى مكانها. لقد كان الابن الضال الذى يعود إلى البيت الأبوى. من يدرى إن كان سيقضى حياته هنا من الآن فصاعداً؟ إن باريس لم تكن نعنى بالنسبة له معنى الحياة. لقد أشيع هناك غرائزه فقط. كان يشك أن الغريزة تشكل السبب الأوحد للكائن وللوجود. كان، وهو على الباب يستسم للخادمة، يفكر أنه ربما يجد للكائن وللوجود. كان، وهو على الباب يستسم للخادمة، يفكر أنه ربما يبعد السعادة فى هدوء هذا البيت. وفكر فى چولى. إن چولى تبدو له كعلاقة تربطه السعادة فى هدوء هذا البيت. وفكر فى چولى. إن چولى تبدو له كعلاقة تربطه بباريس... سوف يهجرها.

_ ماذا ترید یاسیدی؟

أفاق باولو ربحيه.

_ هل تسكن هنا أرملة السنيور جود وفريدو ريچيه؟

ـ بلی باسیدی.

أزاح باولو الخادمة جانباً، ثم دخل إلى البيت. عبر البيت كله تتبعه الخادمة مندهشة. في الفناء، كانت أمه تلقى بالحبوب إلى دجاجة صفراء. (فكر ريجيه في أنه سوف يربى دجاجاً). رأته أمه وعرفته:

_ أيتي! _

_ أمي!

وفى نهاية فترة ما بعد الظهيرة، بعد أن حكى بالتفصيل حباته فى باريس لأمه ولبعض الأصدقاء الذين جاءوا يسلمون عليه، شعر أنه يفتقد چولى.



انتصر الجسد وقاده نحو چولى. الجسد، وحده الجسد. وذلك بالتحديد لأن چولى لا تعرف إلا الغريزة، ولاتعرف شيئاً آخر، ولا يكفيها سوى إرضاء جسدها... وباولو ريچيه يعرف الأمر تماماً، وعلى الرغم من ذلك فهو لا يبتعد عن چولى. بل وأكثر من ذلك، كان يعطيها الحق. إذا كنانت ترغب فيه فذلك علامة على أنها تحبه. الحب لا يتعدى إرضاء الرغبات... إنها مسألة سيكولوچية لا أكثر. ضرورة طبيعية. ومسألة العواطف هذه؟ محض اختلاق من أناس يحاولون إخفاء الحب فيجعلونه بللك أكثر إثارة.

ومع ذلك، كانت تراوده في بعض الأحيان أفكار غريبة. ففي تلك الأوقات، كان يستشف بعض الحقائق في تأكيدات ريكاردو براس. ربما يكون في الحب شيء غير الغريزة. الحب ليس فقط أن نضع أنفسنا في السرير، جنباً إلى جنب، وجهاً لوجه، في عراك الأذرع والعواطف.

إن رتق جورب خمشته قطة سوداء (ارستقراطية جداً لاتنام إلا على الوسائد، ولا تأكل الفاصوليا السوداء)، وقول كلام لطيف، والغيرة من الابتسامات التي ترد على غزل المارة، والتشاجر حول اسم المولود الأول. كل ذلك أيضاً من الحب، كما كان ريكاردو يؤكد بصيحات عالية، وقد احمر وجهه. وأخذت نظارته تتأرجع على طرف أنفه.

كان يواصل محتداً:

- بل إن ذلك هو الحب الحقيقي، الحب الوحيد... السعادة... إن إرضاء الجسد لايمنح السعادة لأحد.

ـ ترهات.

هكذا أجابه ريچيبه الذي لم يرد أن يوافق صديقه حتى لايساوره الشك في حب جولي. إذن لقد ولدنا من أجل هذا الحب... أهو غاية حياتنا؟

- بالضبط. معنى الوجود. إن الغاية توجد في الحب. لكن في الحب الذي أعنى: «الحب العاطفة».

أما خوسيه لوبيز الذي كان يفصل في كل المسائل فلم يبد موافقة ولا اعتراضاً.

أصدر حكماً وسطاً... لابد أن يكون الحب مزيجاً من العاطفة والجنس. لم يكن موافقاً على القول بأن الحب هو غاية الحياة...

صاح ريكاردو مدافعاً عن وجهة نظره:

_ ما هي إذن؟

_ وهل أعرف!؟

وتجرأ چيرونيمو قائلاً:

_ ربما يكون الدين... الله...

واستشاط تيسيانو غضباً مما يعتبره حماقة:

ــ الدين، وماذا أيضـاً يابنى! إذن غايتك، غـايتك كإنسان ذكـى هى نفس غاية كل المغفلين؟

وألح چيرونيمو قائلاً:

_ ولكن التومائية ...

ـ التومائية عبارة عن تجديد للكاثوليكية. وفي النهاية فإن الكتاب التومائيين والقساوسة المثقفين سيجدون أنفسهم يشتبكون في صراع جسدى مع المتعصبات العجائز.

انكمش چيرونيمو في كرسيه بعد أن أفحم. كان يشرب قهوته بينما يحاول إخفاء وجهه. تدخل خوسيه لوييز لإنقاذ چيرونيمو:

ـ من يدري؟ ريما...

- إن الأديان هي نفاية الأساطير، إنها أكاذيب ... (١)

- ليست الحقيقة التي تمنح السعادة. إن الإنسان عليه أن يصل إلى السعادة من أقصر طريق. والدين من المكن أن يجلب السلام، البهجة...

أطلق بيدرو تيسيانو عباراته الرنانة:

- إن السعادة تكمن في الشقاء نفسه، في عدم الرضا. إن عدم الرضا هذا، هذا الشك، هو ما يجب أن تكون عليه فلسفة الإنسان الموهوب. الصوفية دائماً.

أن ينفى عندما يؤكد، ويؤكد عندما ينفى. النهاية هي ألا يصل إلى نهاية.

- كل ذلك قديم ياتيسيانو، ولم يعد صالحاً اليوم... اليوم، نريد أشياء جادة، عملاً نافعاً.

⁽۱) رأينا أن ننقل هذه الآراء كما وردت على لسان الشخصيات، والتي يريد الكاتب بها أن يعبر عن التخبط الفكري الذي كان سائلاً في تلك الفترة في البرازيل. وإن كنا نرفض مثل هذه الآراء كلية. (المترجم)

_ وهل هذه الجدية جديدة؟ قد أراد سقراط أن يكون جاداً. ارسطو والقديس توماس وغيرهما مما لا يحصى من الرجال كانوا جادين... إن غاية الفنان هى أن يحيا لا أكثر... الحياة من أجل الحياة، بالضرورة، لأننا وللنا...

كان خوسيه لوبيز يفكر. فكر كثيراً. هل بيدرو تيسيانو على حق؟ كان يحاول أن يتحرر من ثاثير الآخر. كان يتمتم:

_ إنها نكات ا

كان چيرونيمو سواريس في دخيلة نفسه يتأمل تيسيانو مبهوراً بمظهره الذي يبدو كشيطان، وهو يرتب الشعيرات البيضاء القليلة التي تحاول الإفلات من سيجن قبعته، استعداداً للطيران.

كان ريچيه أثناء عودته يتذكر أول نزاع له مع چولى. كان ذلك أثناء الكرنفال فى ريوديه چانيرو. كان قد خرج وظل فى الشارع حتى الساعات الأولى من الصباح وعندما عاد لم يجدها... كان يتذكر كيف كان يتوقع ذلك (يتوقع، لابل كان يدور حول نفسه...) كانت ليلة فظيعة. الفراش خال، والملاءات البيضاء كانت توحى له بأنه سرير موتى...

توقف الاتوبيس وتوقفت أفكار باولو كذلك. كان يتأمل صف البيوت ونخيل الكامبو جرائدي ا. كان كل شيء ينضح بأحزان ما بعد الظهيرة.

كانت تجلس بجانبه فتاة نحيفة ذات عينين واسعتين ملتهاتين، تتصفح ديوان شعر. حاول أن يقرأ عنوان الديوان «أس بريما فيراس» للشاعر «كازيميرو ديه آبرو». ابتسم. لابد أن تكون هذه الفتاة رومانتيكية... لابد أن لها حييا يكتب الشعر. وربحا لديها ديوان من دواوين ريكاردو براس. أراد أن يسألها عن ذلك. هم أن يفتح فمه. ولكنه وضع يده على فمه بحزم. يالها من فكرة ساذجة ا من المؤكد

أن المفتاة لا تعرف من هو ريكاردو براس. ولابد أن يكون صديقها موظفاً في محل تجارى.

عاود الأتوبيس المسير، واستعاد رجيه خيط أفكاره. لم تصل جولى إلا فى الصباح. فى البداية، لم يقل لها كلمة واحدة. وأخيراً سألته هى لماذا. فاستشاط غضباً وطلب منها أن تذهب إلى الحجيم! لقد أمضت الليل تضاجع آخرين، ومن المؤكد أنها ضاجعت أول شخص وقعت عليه، وها هى تسأله لماذا هو غاضب. فلتذهب إلى الشيطان ...!

سألها متهكماً ضاغطاً الحروف بين أستانه:

_ كيف كان؟ أسود أو خلاسيا؟ قويا؟

دافعت عن نفسها بأن لا مبرر لغيرته. إن هذا سخف... فهى فى نهاية الأمر لم تضاجع أى إنسان. لم تخنه. بل كانت ترقص وتصرخ وتتلهى. وليس فى ذلك خيانة. لماذا يغضب إذن.؟

هو أيضاً لم يكن يعرف. فإذا كان الحب لايتعدى مسائل الحسد والعلاقات المحتسبة فما سبب شكواه؟ إنها لم تضاجع أحداً آخر، وهو يصدقها لأنها لم تكذب عليه.

وفى الأتوبيس، أقر باولو بنظريات ريكاردو. لقد كان غيوراً من العبارات والابتسامات التى كانت جولى تغدقها على زملائه فى اجتماعاتهم. إن الحب لا يقف عند حدود الامتلاك... ولكن إن كان الأمر كذلك فمعناه أنها لاتحبه...

توقف الأتوبيس وهبطت امرأة سمينة. تنبه باولو ريچيه أنه تخطى منزله فهبط تاركاً أفكاره هناك. على باب البيت الريفى كانت أمه تنتظره متهللة لترف إليه ميلاد كتاكيت دريكارد بنيا، الدجاجة العجوز التى يعشقها كل أهل المنزل، والتى «ستموت من الشيخوخة». كان باولو ربحيه يستمع لأمه تحدثه عن أبيه الذي لا يتذكره.

كان «جودوفريدو» يمثل بالنسبة له رجلاً بلا مشاكل شخصية. كان له هدف. أحب أياه.

كان، بعد الظهر. وهو يفتش في أدراج لم يفتحها أحد منذ سنوات، قد عثر على دفستر يخص والده. لم تكن ملكسرات بالمعنى المعسروف، بل مسجسرد ملاحظات... قرأ فيها:

«هل تتلخص حياتي في ذلك: العمل، العمل؟... وهل لا أكون أبداً سوى مالك غني؟... أليس هناك شيء اخر في الحياة غير العمل كل يوم، والراحة كل يوم وسط الأسرة؟...»

دمدم ريچيه بين أسنانه:

- حتى أبي، حتى أبي....

* * *

كانت چولى عمدة فى السرير تقرأ رواية لـ «ويلى»، وتدخن سيجارة خفيفة تركت الكتاب لأنه عمل. كانت الساعة فى يدها تشير إلى العاشرة مساء، إن باولو على وشك الوصول. كانت تفكر فيه بما يشبه الاشمئزاز.

عندما وصل باولو بدأت على الفور مشاجراتهما اليومية. نويات من الغيرة لا أساس لها. كان يريد أن يعرف كيف أمضت يومها، وماذا فعلت، وأين ذهبت... لقد ارتكبت خطأ عندما تركت نفسها ترنبط به. فقد كانت تعتقد أن ريجيه عقلانيا، وأنه سوف يسخر من تصرفانها. باريس مهذب لايبغي إلا اللذة لا أكثر. ولكنها بدلاً من ذلك وجدت نفسها مع إنسان رومانسي، مشبوب العاطفة، فكانت تقول له وهي نضحك:

ـ يا حبيبي الصغير إنك برازيلي قح!

وكانت تردد على مسامعه «مثلاً» سمعته من زنجية سمينة أمام الفندق:

- (من لا يعرفك يريد شراءك...١

أفاقت چولى منتفضة عندما دخل باولو ريجيه وقبل شفتيها المتلتتين، ولما لم تستيقظ عض شفنيها.

- _أوه، تعضني... وقد عدت متأخراً! في منتصف الليل ا
- آه يا حبيبتى! عندى لك خبر... سنذهب يوم الاثنين إلى المزرعة، في جنوب الولاية. نحن الاثنين فقط، سنظل وحدنا... في أتم سعادة...
- الجمعة والسبت والأحد والاثنين... وهل هي جميلة المزرعة؟ هل هناك غور وأسود؟
 - ـ لا يا عزيزتي (بضحك) لاشئ من ذلك، ولكن توجد ثعابين ..
 - ـ لن أذهب إلى هناك. إنني أخاف من الثعابين...

تعب في إقناعها بأنها لن ترى الثعابين .. فالمسكينة تحيا في الأدغال!

ـ وإذا لدغني أحدها... ومت؟

تهلل ريچيه. فها هي چولي أخيراً ليست جسداً فقط. إنها أيضاً عاطفة. فهي تخشي الموت لأنها لاتريد أن تتركه وحده.

قبلها بعنف.

- إن مت يا غزيزتي سأكون بائساً بائساً ...
- ـ بل أنا التي سأكون يائسة لأنني لن أستطيع العودة إلى فرنسا...

رفع باولو رأسه غاضباً وأخذ قبعته وخرج من الغرفة مند فعاً وهو يغمغم:

_ الكلبة ا تحن دائماً إلى ماضيها...

وفي الغرفة كانت چولى تفكر:

_لقد جن، ما في ذلك شك...

مطت شفتيها اشمئزازاً وأدارت وجهها إلى الجانب الآخر ونامت.



كانت سفينة الشركة الساهيانية تشارجح وسط البحر الواسع. وكان إقطاعيو الكاكاو يتحدثون عن الأزمة، وكان الطلاب يتناقشون حول الاستحانات ويخططون لعيد القديس «سان خوان» القادم.

كانت چولى وهى عمدة على الأربكة، سائدة رأسها على ركبتى ربجيه، تقص عليه كيف قضت فى الصين ثلاثين لبلة فى زورق يسمعد النهر، وأنها كانت بمفردها مع سنة رجال من الصينيين الأقوياء. عبر باولو عن غيرة شديدة من الماضى. وعن كراهية لهؤلاء الصينيين. سنة وهى معهم، بمفردها. سنة صينيين. لم يرغب فى سماع المزيد.

أنذرته چولى بحزم:

ـ باولو، يا عزيزي. هل تعود إلى طبعك؟...

* * *

وصلا إلى وإيلياوس في ساعة مبكرة، في الوقت المناسب لاستقلال القطار. بعد ذلك كانت المشاهد المتسابعة. شجيرات الكاكاو المحملة بالثمار، ثمار كثيرة صفراء، مليئة بالعصارة. شغف باولو ربحيه بمهنته الجديدة كبإقطاعي. وكان يشرح لجولي زراعة الكاكاو. كان يحدثها عن منطقته عندما كان والله لا يزال حياً، قبل أن يذهب إلى أوربا (كان ذلك منذ سنوات عديدة...)، كان يصطحبه إلى المزارع. وهناك كان يرى آلچيميرو، رئيس العمال، ذا البنية القوية. إنه خلاسي عملاق يقال إنه قتل تسعة كحارس شخصي لجودو فريدو العجوز. في مرات كثيرة، كان يذهب معه إلى البلدة المجاورة لمشاهدة السينما، وكانا بعد ذلك يغشيان المنازل الحقيرة للمومسات العبجائز، ويختلطان بحشالة المدن، الذين يأتون إلى ذلك المكان من العالم ليحكوا عن بطولاتهم في الحياة.

كان آلچيميرو شجاعاً، ذا سمعة طيبة. وكان يستقبل دوماً بالترحيب. يتذكر ريجيه جيداً أنه في إحدى المرات ذهب إلى خوانا في الفندق، وهي خلاسية شابة، جديدة في المهنة، وكان يميل إليها، وعرف آلچيميرو أن في غرفتها رجلا آخر فقذفه من النافذة (يا للخوف الذي استولى على باولو). وبعد ذلك ضربها كثيراً.

ـ لماذا ضربتها يا آلجيميرو؟

ـ النساء يجب معاملتهن هكذا يا كولونيلي الصغير. النساء حثالة لاتساوى شيئا...

كانت چولى تصغى باهتمام. يالهم من رجال...

- وهل لايزال هذا الصديق يعيش في المزرعة؟
- لايزال. إنه دائماً رئيس العمال. ولكنه صار عجوزاً...

أصدر القطار صريراً فوق القضبان ثم توقف. هبط ريچيه ومد يده إلى چولى. رأى الجيميرو الذي كان يتحرك من مكان لآخر وكأنه يبحث عن أحد.

_مرحباً آلچيميرو!

ـ أرنى نفسك يا سيدى! لقد كبرت! بالأمس كنت طفلاً... من كان يتصور... إنهم في أوربا يكبرون بسرعة.

_ قل لى يا الجيميرو، أمعك مطايا؟

ـ نعن يا سيدى، كانما كنت أخمن أن يأتى أحد زيادة. أحضرت دابتين...

يمكنك أن تصطحب صديقاً..

_ لقد اصطحبت صديقة...

قام باولو بالتعارف:

ـ مدموازيل چولي.

- الجيميرو رئيس العمال في المزرعة.

قام آلچیمیرو فی نشاط بوضع سرج نسائی علی بغلة چولی. كانا فرحین فوق الدابتین، یتبعهما زنجی غریب، كله عضلات، عاری الجذع. وخلف السرج كانت البندقیة تغفو فی نوم برئ...

صالح الچيميرو:

_ «أونوريو القدم إلى الأمام، سوف أسير في الخلف مع السيد.

كانت چولى طوال الرحلة تبدى إعجابها بعضلات ظهر «أونوريو»، الذي كان يتقلم الركب غير مكترث. يمضغ قطعة من التبغ الأسود بين أسنانه البيضاء.

كانت اللواب معتادة على أن تقطع هذا الطريق كل يوم، حاملة أجولة الكاكاو لتتوقف بالضبط أمام البيت ذى الطلاء الأبيض، وفي الأرض الفسيحة كانت دجاجات وديوك رومية تنقر بنشاط.

عاون آلجيميرو باولو على النزول بينما أخذ «أونوريو» چولى بين ذراعيه ووضعها على الأرض. قربت رأسها الشقراء من الصدر الخرساني المسلح للعامل الزراعي. شمت رأئحة الذكر القوية.

فى تلك الليلة، عندما كان ربحيه يضمها بين ذراعين ضعيفتين لإنسان شديد التحضر، كانت تفكر بشهوانية فى عضلات الونوريو، وفى جسده العملاق. وذاق ربحيه طعماً جديداً لقبلاتها ولمس حمية زائلة فى عناقها. ونام سعيداً.

* * *

إن باولو ريچيه مفتون بفرنسية، ولأنها لاتحبه فهى ترقد معه فحسب. إن الفتى يريد أن يقتع نفسه بأن الحب غريزة فقط... المسكين! المسكين! لايريد أن يزول عنه الوهم...

أكد خوسيه لوبيز:

- ـ ولكن زوال الوهم أمر ضرورى.
- _ إنك تتكلم وأنت في طمأننية، خالى البال.
- ـ يا براس. إن طمأنينتي هي نتيجة زوال الوهم. لقـد أصبحت خالى الـبال لأنني لا أنتظر من الحياة شيئاً طيباً. لا شيء سـوى أن تقع أشياء أسوا مما وقع بالفعل. إنني لا أشكو.
 - إذن فهذه ليست طمأنينة.
 - ـ وهل هي شيء آخر؟ إن الطمأنينة هي تزييف السعادة...
 - ـ وهل هذه نهایتنا نحن؟
 - ـ ربمًا، ولكن اسمع. إنني اعتقد أنها كذلك. أن نتلاءم مع الحياة.

وأن نحيا كما نحيا.

أكد تيسيانو:

_ بالضبط، أن نحيا من أجل الحياة فقط.

ولكن خوسيه لوبيز اعترض:

_ ولكنه يا تيسسيانو تناقش معك قبل ذلك وقال إن الدين يمكن أن يمنع السعادة... والآن ينكر وجود السعادة...

_ ليس ذلك بالضبط. إن السعادة لا تتوافر لبعض الناس. أنت مثلاً يا من تأمل في العشور عليها في الحب أصبت بخيبة الأمل. إن السعادة لم تخلق لك. أما چيرونيمو فهو حالة أخرى، أعطه زوجة صالحة وقليلاً من الدين والإيمان بالغييات ستجده سعيداً.

_ هذا صحيح في حالة جيرونيمو ولكن حالتك أنت؟ إن لديك ذكاء شيطانيا وتقول إنك من المكن أن تصبح كاثوليكياً.

- إننى فى الحقيقة أشعر أحياناً بحاجة إلى عزاء مع الأصدقاء بقدر ما نحبهم، ربما لأننى مخلص. إننا فى حاجة إلى إله طيب يستمع إلينا ويعزينا. ولكن هذه مسألة عواطف. إن عقلى لم يهدنى بعد إلى الله ولن يهدينى قط. أما بخصوص العاطفة فإنى أقهرها.

_ أنت الذي تقول إنك مطمئن!

توقفت المناقشة عند هذه المنقطة عندما دخل جوميز مندفعاً كالريح بتبعه جيرونيمو. جلس وهو يلهث ونادى فتاة البار:

- اعطنی بیرة!

أعرب بيدرو تيسيانو عن دهشته:

_ هه؟ بيرة؟ هل تسمعون، جوميز يطلب بيرة. لابد أن شيئاً خطيراً جداً قد حدث، خطير للغاية.

وأخذ جوميز يشرح السبب:

_ إنني متحمس!

قاطعه تيسيانو:

_الحماسة دليل على السطحية.

_ لاتقاطع الرجل!

صاح جوميز وهو يلهث:

_ فكرة، فكرة عظيمة.

صاح ریکاردو:

- فكرة؟ لديك فكرة يا جوميز؟ احتفظ بفكرتك يا عزيزي. إنها كنز.

_إذهب إلى الجحيما

إذا لم يعجبه ذلك فليذهب... عجباً 1 الرجل يجتهد في العمل على مصلحة الجميع ويأتى براس ليتخابث...

تدخل خوسيه لوبيز معترضاً:

- لا تكونوا أغبياء! إنني مشوق لأن أعرف، احك يا جوميز...

جاءت الفتاة بالبيرة. وطلب جوميز سيجاراً:

ـ قأور ديه كوباك ... لا بل قسوير ديك غرة ٤٢.

كانت دهشة تيسيانو بلا حدود.

بعد أن عاد إليه هدوؤه، أعلن جوميز عن فكرته وهو يضرب يقيضته على المائدة:

-جريدة يومية! سيكون لنا جريدة يومية ا

San_

.. جريلة؟

_ماذا يقول جوميز؟

ـ بلى جريدة يومية ... (الاستادو دا باهيا) ...

لقد كانوا يطمحون إلى امتلاك جريدة. سيصبحون سادة باهيا. ولن يستطيع أحد أن يضعل شيئاً ضدهم. سيكسبون ثروة طائلة. والآن يعلن جوفيز بأعلى صوته بأنهم سيملكون جريدة.

لكن ريكاردو أبدى تشككاً:

ـ حسناً، هذه مجرد فكرة! فكرة...

_ إنها فكرة في طريق التحول إلى واقع.

تدخل لوبيز راجياً:

- فسر هذه الحكاية يا جوميز.

- الحكاية أن محافظ إحدى مدن الداخل يريد منا أن نؤسس جريدة. ستكون

جريدة المجلس المحلى للمحافظة... ستكون شركة مستترة. فكل محافظ سيساهم عبلغ معين، ونساهم نحن بأقلامنا. ستقوم الجريدة باللفاع عن المحافظين الحاليين وإدارتهم. ماذا تقولون؟

سيكون بيدرو تيسيانو المدير، وخوسيه لويبز رئيس التحرير، ويشكل كل من ريكاردو وجيرونيمو هيئة التحرير. أما جومينز فسوف يقوم بوظيفة المدير المالى ليحقق الربح للجريدة. في هذه الساعات العصيبة سيقوم بعمل تحقيقات صحفية. إنه مشروع...

ـ في الحقيقة...

قهقهه ريكاردو قائلاً:

ـ سوف نحطم الأوغاد، سوف نحطم الأوغاد. (الأوغاد هو الاسم الذي يطلقه على الخلاسيين أعدائه). إنك عبقري ياجوميز، أقصد أن هذا المحافظ عبقري... واقترح تيسيانو أن يشربوا نخباً على شرف المحافظ.

وطلب چيرونيمو سجائر مؤكداً أنها على حساب (لاستادو دا باهيا).

استغرقوا في وضع الخطط. بدأوا يحلمون وكأنهم أصبحوا يمتلكون باهيا بين أبديهم. سوف يعملون في البداية دون سعى وراء الربح. وماذا بعد...

قد يثرون ويصبحون مشهورين في البلاد وينشرون كتباً. سوف يحيون أخيراً. كان خوسيه لوييز يفكر:

ـ لا أصدق ذلك. من الطبيعى أن تصادفنا الإحباطات والمتاعب... وكنان ريكاردو براس من جانبه يرى أن كل ذلك شيء تافه بالنسبة للحياة «العمل وحده لا يكقى. لابد من الحب...»

جوميز وحمده الذي كان راضياً. كان يضحك كثيراً مظهراً اسنانه النخرة. انتصب وسار بخطي واسعة. كان على طريق المجد...

* * 4

مضت صشرة أيام وهما في المزرعة. كان باولو مسعيداً. كان موقتاً أن چولى أصبحت ملكه تماماً. ومن ذا الذي يجرؤ على النظر إلى حبيبة السيد؟ ومن ناحية أخرى، فإن چولى لن تعطى فرصة لأحد من هؤلاء المتوحشين، فهم حيوانات أكثر منهم آدميين.

كان ريبجيه كل صباح يمتطى الجواد ويقوم بجولة فى القرية. كان يأتى بالجرائد والمجلات التى كان يقرأها فى المساء، على ضوء مصباح الكيروسين، قبل أن ينام. لم ترافقه چولى قط. وكانت ذريعتها فى ذلك أنها لاتحب أن تذهب راكبة جواد.

فى ذلك اليوم، الذى كان يوم جمعة، ذهب ريجيه مبكراً. كانت السماء خائمة تنذر بالمطر، ومع ذلك، واصل طريقه، وكان يحث البغلة على الإسراع. وفى منتصف الطريق، كانت السحب قد تكاثفت وأصبحت أكثر تهديداً فقرر أن يعود. وعندما وصل لم يجد چولى فى البيت فذهب يبحث عنها فى المنطقة المعطة.

ماذا تفعل إذن؟ ربما تقطف حبات اليوسفي...

كان ريجيه يسير خالى الذهن في المر الذي ينحدر إلى النبع حبث تنتصب شجرة اليوسفي الكبيرة عندما التفت جانباً وبالمصادفة فرأى ما أذهله.

تحت الشجيرات كانت چولى و اونوريو، متعانقين يتضاحكان. كانت تنورتها مرفوعة تكشف عن فخذيها الأبيضين.

لم يثر ريحيه فضيحة. عاد إلى البيت وانتظر...

عادت چولى عند الظهر. لاخطت هيئة ريچيه الصارمة. خافت أن يكون قد اكتشف الأمر. ولكن لأنها متمرسة على هذا النوع من المواقف فلم تضطرب:

- ـ وصلت منذ فترة طويلة ياحييي؟
 - ـ منذ فترة طويلة جداً.
- _ كنت أتنزه بالقرب من منا. في الأرض الزراعية.
 - _ أعرف. جهزى حقاتبك. سوف نرحل غداً.

لم تناقشه، ذهبت إلى غرفتها، وخرج هو يبحث عن الجيميرو.

وجده بالقرب من أحد القوارب، يشرف على تجفيف الكاكاو.

- آلچيميرو، اطرد داونوريو.
- ــ ولكن ياسيدي إنه مدين للمزرعة بستمائة ألف رايس!
- تلبر طريقة لكى يسلد البلغ واطرده. وإذا لم يكن معه نقود، احبسه.
- لديه بيت في البلدة ينتفق من إيجاره على ابنته التي تشعلم في المدرسة في (إلياوس).
 - كم يساوى البيت؟
 - حوالي خمسمائة ألف رايس.
 - ـ خذ البت.
 - ثم ذهب يتبعه الحيميرو الذي قال بصوت خفيض:

- سيدى، إذا أردت يمكنني أن أصفى الرجل جسدياً... أو أضربه ضرباً مبرحاً حتى يعرف أنه لا ينبغي أن ينظر إلى فراش السيد...

_ كلا، خذ البيت فقط.

* * *

في الغرفة الوحيدة بالبيت كان هناك سرير واحد. كانت چولى نائمة.

وفكر ريبحيه بأنه لا داعى لأن يقضى الليل ساهراً بسبب عاهرة فنام هو أيضاً. كانت وهى منزوية فى ركن تكشف عن أحد ثلبيها وكأنها لا تقصد. شعر بقدمه تمس قدم جولى. سرت قشعريرة فى كل جسده. أراد أن ينهض ولكنه لم يستطع. استدارت فى السرير والتصفت به. وأخذ باولو يداعبها. أخذا يتمانقان. ثم بدأ يمارسان الجنس.

وفي لحظة الذروة طلبت منه:

ـ اغفر لي...

_ کلا!

دنعها بعيداً عنه ثم أطبق على رقبتها. صرخت فتركها. كانت به رغبة مجنونة لأن يهشمها. شتمها. ابتسمت. لكمها. صرخت فيه:

_ يا جبانا

وضربها كثيراً ثم تركها تبكى في السريسر وخرج. كان يستنشق بنهم هواء الليل. وكان القمر في السماء يتوارى خلف السحب.

وبدت الريح وكأنها تغنى في أذنيه مارش الكرنفال:

اضربها

اضربها



شهر من العمل المكتف. الاستادو دا باهيا، أخذت كل وقته. فمن المفترض أن تصدر الصحيفة خلال الأيام القليلة التالية. كان باولو ريجيه وخوسيه لموييز لا يخرجان من قاعة التحرير. كانا يخوضان في أصاديث تآمرية. كان هذان الشخصان المتناقضان متفاهمين. لم يكن أي منها راضياً عن حياته. كانا يشعران بالحاجة إلى شئ يجهلان طبيعته. كان ينقصهما شيء. وقد انتهيا إلى الاقتناع بأن المرء إنما يحيا من أجل شيء سام. ما هو؟ كان ريكاردو براس يؤكد أنه ضاية الحياة، أي السعادة، وأنه يوجد في الحب. وكان چيرونيمو سواريس يلمّح بحياء إلى أن الدين قد يكون بإمكانه إرضاء حاجة كل الناس إلى هذه الغاية.

مال باولو ربحيه إلى رأى ربكاردو. ولم يشك خوسيه لوبيز فى أن چيرونيمو على صواب، ولكنهم لم يبلغوا قط اليقين الذى بلغه الآخرون. ومن بينهم. كان بيدرو تيسيانو ـ وقد أصيب عرض خطير فى عينيه، جعله يفقد الرؤية ـ يقسم بخبرة حباته البالغة خمسة وستين عاماً أن الإنسان الراقى ليست له غاية، إنما يحيا فقط من أجل الحياة.

ولكن ريكاردو براس إنسان راق ومع ذلك فهو يؤكد أن الحب والزواج والحياة البرجوازية، كل ذلك يأتي بالسعادة.

- وهل أحب من قبل؟ هل كان متزوجاً؟ عندما يحب ويتزوج سيصاب

بالإحباط... كان خوسيه لوبيز في صف تبسيانو. الحب لا يأتى بالسعادة... ثم أضاف مزهواً:

- والشيع؟ مأساة الشيع؟

الآن، لاعزاء إلا في الأسمى ـ الله والدين.

صاح بيدرو تيسيانو:

ـ لا أشك في أن ذلك بإمكانه أن يوفر العزاء، ولكن الضعفاء والتنافهين هم اللهن يسحثون عن العزاء. أولئك الذين لايستطيعون منصارعة الحياة بمفردهم تجدهم في حاجة إلى الله.

... أعترف أنني بمفردي سوف أفشل...

_ هيا هيا! إنك تبحث عن معنى لحياتك، أليس كذلك؟ حسنا جداً. إنها مسألة ذهنية. إنك تبحث عن شيء أسمى، هذه الغاية، لأنك غير راض بما هو موجود... لاتريد عزاء... إن مشكلتك نابعة من العقل وليس من القلب...

- غير صحيح. إنها تتعلق بالقلب أكثر من العقل. ولتكن متأكداً أن القليل من العقل الذي بداخلنا هو الذي يبعدنا عن السعادة... سيكون ريكاردو تعساً في الحب لأنه سوف يلاحظ أقل عيب في زوجته، عندما تقوم بطهو الطعام أو تنظيف المنزل. أما ريجيه فسوف ينتقد انعدام الشاعرية في الدين، في بعض الصلوات بإلاضافة إلى أشباء أخرى كثيرة.

- حسناً! إنك تشاركنى وجمهة نظرى. إذا كنتم مثل كل الآخرين فإنكم ستجدون السعادة فى أى شىء. ستجدون السعادة فى أى شىء. ولكن لأنكم متسامون فلن تجدوها مطلقاً. إن السعادة تخص الحميس والمغفلين. ومن حسن الحظ أننا تعساء.

دخل جومينز الذي كان شاهداً في قضية فض بكارة. كان أحد أصدقائه قد فض بكارة إحدى الفتيات، ولكى لا يتزوجها صديقه، ذهب هو إلى قسم الشرطة وقال إن المسكينة لاتساوى حتى قرشاً مثقوباً.

- _ وهل حقاً لاتساوى شيئاً؟
- _ وهل أعرف؟ ما أعرفه أن الآخر صديقي!
 - حيوان!

حكى جوميز ما حدث وهو يضحك. فمأمور الشرطة المغفل أراد منه أن يحلف واضعاً يده على الإنجيل فلم يجدوا، فأحضروا كتاب «آدوريموس». طلب منه المأمور أن يحلف. وهنا يا أصدقاء أفحمته...

۔ مکذا؟

. لقد قلت إننى يجب أن أقسم على الإنجيل، وليس هناك إنجيل. لقد الحضرتم «آدوريموس» فهل كنتم ستطلبون منى أن أقسم على أول كتاب لد «فيليسبيرتو ديه كارفاليو»، أليس كذلك؟

ضحكوا.

- _ إنها جميلة، أليس كذلك؟
 - _ جميلة جداً! رائعة ا...

خرجوا. وكانت زنجية عجوزاً تبيع الفول السوداني المحمص وقطعاً من قصب السكر. توقف جوميز ليشتري حفنة من الفول السوداني.

ـ لا يليق بمدير تجاري لجريدة أن...

- إذن إذهب أنت وازرع الفول بنفسك!

وافترقا.

_ستأتى هذا المساء باتيسيانو؟

ـ لا أستطيع... عيناى لا تمكنانى... حاول تيسيانو أن يبتسم ولكن أسى لا حدود له ارتسم على وجهه المغضن.

جلس فى الترام عائداً إلى المنزل يشرئر مع دونا مرسيدس جارته التى كانت تشكو من زوجها المنخرط دائماً في السياسة (ويطبيعة الحال في المعارضة...».

مع ما في ذلك من المخاطرة بتلقى رصاصة أو ضربة عيتة...

ـ مسكين خوان... الطيب...

كانت تمسح دموعها وكأن زوجها قد مات بالفعل.

دفع تيسيانو بكرم أجرة الترام. وواصل المحصل جولته منادياً:

_ أيها السادة والسيدات، أجرة من فضلكم!

كان تيسيانو يستمع إليه وهو يفكر في أصدقائه يمضون حياتهم في ترديد:

- سعادة من فضلكم!

كانت لديه قناعة بأنهم سينتهون مثله متشككين، لامبالين، متعالين على الحياة. سردت عليه دونا مرسيدس خطبة لزوجها.

* * *

عندما وصلت دونا مرسيدس إلى منتصف السلم (سلم طويل بإمكانه أن يصيبك بالسل في شهرين) بدأت تصيح:

_ دندينيا! دندينيا!

خرجت على الأبواب كل النساء الساكنات في ضرف السلم بالقرب من الطابق الرابع، حيث تسكن جماعة من البرو تستانت قريباً من السماء. كانت ماريا ديه لورديس، تصعد السلم بأقصى سرعة لاهثة وشعرها الكستنائي مشعث وعيناها مفتوحتان على آخرهما.

ماذا جرى يا لوردينيا؟

ماذا جرى؟ ماذا جرى؟ سألت النسوة وقد جحظت عيونهن من الفضول واستولت عليهن رغبة مجنونة في معرفة مايحدث...

ــ هناك سينما مجاناً، اليوم!

دمدمت الإشبينة (١) بأن لا داعى لإثارة كل هذه الضجة بسبب السينما. لقد أفزعتها وجعلتها تظن أن أحد معارفها قد مات.

اعتذرت قماريا ديه لورديس؟ التي نادراً ما تذهب إلى السينما إلا عندما تكون مجاناً. فقد قام المسئولون عن إدارة السينما غلاظ القلوب بإلغاء عروض المساء الرائعة (كان الدخول للسيدات والفتيات مجاناً، بينما يدفع الرجال مائتي ألف رايس والأطفال ستمائة رايس). والآن فإن المالك الجديد، ولكي يعمل لنفسه شعبية، أعاد العروض المجانية (لم يستطع المالك القديم أن يواصل فقد شنت عليه نساء الحي حرباً شعواء حتى باع السينما).

أيدت جوقة النساء اماريا ديه لورديسا:

.. معها حق لوردينيا فنادراً ما نلهب إلى السينما... وما هي الأفلام المعروضة؟ .. أجابت والفرح يتراقص في عينيها:

⁽١) الإشبينة هي المرأة التي تقوم بعماد الطفل فتصبح بمثابة أم له في العماد، وكثيراً ما يسمى الطفل بإسمها. (المترجم)

- «توم ميكس» «ملك رحاة البقر». إنه فيلم رائع. وبطلة الفيلم هى... لم أحد أتذكرها... هذه الشقراء، فاثقة الجمال، صاحبة القبلات الطويلة القبلات الطويلة جداً... لا أستطيع أن أتذكر اسمها. أحسن. وهناك أيضاً «لماذا تبكى أيها المهرج». فيلم مثير... والفصل الأول من «قطار الموت»...

-رائع! رائع!

نست أيضاً أن تذكر فيلم (شووكا ـ شووكا).

سألتها هيلينا:

- والجريدة السينمائية؟ هل يعرضون الجريدة السينمائية؟

وهيلينا هذه شقراء في حوالى الثلاثين جعلت الناس يلوكون سيرتها. إذ يقال إنها تتردد على البيوت المشبوهة... وخالباً ما تشاهد في الشارع مع عشيق مختلف... كانت تريد أن تعرف إن كانت السينما ستعرض الجريدة السينمائية.

كانت مغرسة بالفونس الثالث عشر ملك أسبانيا الذى يظهر دائماً في الجريدة السينمائية.

ـ ولكنه متزوج يا دونا هيلينا.

- وماذا يهم؟ أن أكون حبيبة الملك ليس مسعناه أن... اسألى فقط دونا ماريا. (دونا ماريا امرأة عربية نحيفة جداً تستأجر الغرف المطلة على السلم وتعيد تأجيرها من الباطن. وكسان المستأجرون يقولون من خلف ظهرها إنها تربح من ذلك ثروة طائلة) في بلادها يتزوج الملك أربعين امرأة...

- _ أما أنا فلا أريد أن أكون حتى حبيبة أغنى رجل في العالم.
 - نقولين ذلك... لكن إذا أظهر لك حزمة أوراق مالية...

_ إنك تعتقدين أن كل الناس مثلك...

ـ بل أكثر سوءاً... أكثر سوءاً... حتى القمديسات المتظاهرات بالفيضيلة... وبدأت النساء يعملن بجد وحمية ونشاط لكي يذهبن إلى السينما في المساء...

* * *

كانت غرف السلم صنغيرة للغاية... وهناك، كان يسكن أتاس كثيرون! في الواجهة، كانت دونا ماريا العربية مع صبيين قذرين مشاكسين كانا يثيران الفوضى في الطابق والسلم بألعابهما. كانت دوناهيلينا تقول عنهما إنهما شيطانان. وفي الغرفة المجاورة، كان يرقد عجوز، موظف في بنك. كان المسكين يعود في المساء ويخرج في الصباح. وكان الجميع يرون فيه رجلاً طيباً... وفي غرفة صغيرة بجواره، كانت تعيش ماريا ديه لورديس وإشبيتها. كانت الاشبينة دونا بومبينيا تعمل بالخياطة، وكانت بما تكسبه يومياً (مبلغ هزيل يقارب خمسة آلاف رايس) تشترى احتياجات البيت واحتياجات الابنة التي ربتها والتي كانت لاتدعها تقوم بأى شيء سوى ترتيب الغرفة والذهاب لشراء الملابس. وفي الغرفة الأخيرة، كانت دوناهيلينا وأختاها الجورجينا) وابيسيه بمضين يومهن في الشجار. كن يعرفن كل أنواع الألفاظ البذيئة. يعملن قليلاً. ولا أحد يعرف كيف تجد هيلينا النقود لشراء الطعام وسداد إيجار الغرفة، بل وفوق ذلك، تشترى ملابس أنيقة. كانت چورچينا قد بدأت فترة من البطالة. وكانت (بيبيه) أصغر الأخوات، والتي لا يزال نهداها في طور التكوين، تبقى بالمنزل وحدها، تطرز جوارب للأطفال الرضع. (كانت هذه الجوارب الرائجة تباع في أحد بوتيكات «بايكسا دوس سابا تيروس، على أنها إنتاج فرنسي). وفي الغرفة المواجهة، كانت تسكن عربية أخرى كان لها اسم معقد لذلك تم اختصاره إلى «فيفي». كان لدونا «فيفي» ولد لص صار رجلاً (في عامه السابع عشر). كان يأتي فقط ليبتز منها النقود التي ينفقها

على ملذاته الفاجرة. كان يمضى وقته بين شرذمة من أفسد الفتيان الذين يحتالون على النساء المسكينات في هضبة «لاديرا دى تابواو». وعندما يتصادف وينام في البيت، كان يظل عارياً في نفس الغرقة مع أمه التي تنام على الأرض (كان الابن يتام على السرير) وكان لايكف عن الشكوى من الحياة التي يحياها. وكان يوجه سيلاً من الشتائم بالعربية. وذات مرة، فلتت منه كلمة بالبرتغالية سمعها الجيران المتربصون:

ـ بغلة... عجوز خبيثة...

رسمت دونا بومبينيا إشارة الصليب.

وأكدت دوناهيلينا:

ـ هذا الصبي ممسوس. سينتهي نهاية سيئة.

وبالاضافة إلى ذلك، كانت الليلة التي يـقضيـها هناك لايستطـيع مخلوق أن ينام، كان يتعارك مع أمه طوال الليل... جحيم!

كانت (بيبيه) وحمدها التي تحبه. كانت تأتى له بالحلوى ويجلسان معا على السلم.

كان يقرص طرف ثليها الوليد ويعض أذنها. وكانت تتركه يفعل وقد سرت في جسدها رعشة.

كانت دونا بومبينيا المدافعة عن الأخلاق تدمدم:

_ فحش، بذاءة ا

لم تكن بومبينيا قد تزوجت أبداً المسكينة، وكانت هذه الأشياء نضغط على أعصابها. كانت عصبية بشكل مثير. وكانت بسبب عصبيتها تتشاجر مع أخوتها، وكانت تجد صعوبة في الحصول على عمل، هي وماربا ديه لورديس! مسكينة

ماريا ديه لورديس! كانت في ريعان شبابها تلاقى كشيراً من المعاناة! وكانت أسرتها بسبب خصام مع دونا بومبينيا، لا ترغب في معرفة أي شيء عنها فكانت ماريا ديه لورديس تشاطر اشبينتها هذا العذاب الذي هو حياتها.

ـ إن حياتي رواية. رواية يكفى فقط كتابتها.

كانت دونا بومبينيا تردد ذلك على مسامع موظف البنك العجوز (كان شاعراً في شبابه، نشر قصائد في بعض صحف باهيا. كان يوقعها باسم مستعار: «فيفالدو مورينو) رواية... يكفى فقط كتابتها.

كانت ماريا ديه لمورديس وقتها في السادسة عشرة. جميلة جلاً. ذات عينين واسعتين حزينتين، تبدوان وكأن غلالة من الضباب تغطيهما. وكان شعرها الذي يغطى كتفيها ذا لون متماوج بين الأشقر والكستنائي.

ونهدان صغيران ينتصبان تحت قميصها. وشفتان حمراوان تدعوان للتقبيل. كانت لها سمعة فتاة مستقيمة، لم يُعرف لها إلا حبيب واحد، «أوسفالدو» الذى كان يحبها منذ عهد المدرسة. بل لقد تمت خطبتهما. ولكنه مات المسكين! والآن، لم يبق منه إلا بورتريه تحتفظ به ماريا ديه لورديس كآخر تذكار من «خالد الذكر أوسفالدو».

بالها من مسكينة، ماريا ديه لورديس!



فى ذلك المساء، كان باولوريجيه يتناول العشاء مع ريكاردو براس الذى حصل منذ أيام على شهادته الدراسية. تحدثا كثيراً عن كل شىء. عن البرازيل وعن الثورة التى تملأ الصحف. كان باولوريجيه لا يعتقد بأن الثورة ستؤدى بالبلاد إلى الأحسن. وكان ريكاردو من نفس الرأى. فتفاقم الأمور فى كل الأحوال كان أمراً مستحيلاً. «إن البرازيل على حافة الهاوية». عبارة بليغة لكنها حقيقية.

ـ إذن فهى تسقط فى الهاوية! سيكسون أمراً طريفاً أن تكون البرازيل فى قاع الهاوية...

انفجرا في الضحك.

كان ريكاردو، على الرغم من كل شيء، يجد في البرازيل مشاكل هامة جديرة بالدراسة.

إن أكبر مشكلة في البرازيل هي معرفة إذا ما كان اسمها يكتب بالسين أو بالزال.

_ لابل هناك مشاكل أكثر أهمية. مشكلة الشمال...

چيرونيمو سواريس الذي أتى يشارك في وليمة براس دخل في المناقشة:

_ ينبغى أيضا أن نفكر في سعادة الشمعب.. في سعادة الوطن.. أبدى ريجيه تشككاً:

- لا ينبغى للمرء أن ينشغل إلا بسعادته الشخصية. ويوم يكون كل فرد سعيداً، ستكون الإنسانية سعيدة... أما مسألة التضحية من أجل الصالح العام فأنا لا أقرها. والوطن... ليس لدى إحساس بالوطن. لم أشعر أننى برازيلى إلا مرتين. مرة فى الكرنفال، عندما رقصت السامبا فى الشارع، والمرة الأخرى عندما ضربت (چولى) بعد خيانتها لى.

ـ لقد كان تيـسيانوعلى صواب، ففي مقالته التي قدم بها «لاستادور دا باهيا» استطاع بحق أن يعرف الوطن.

كان ريكاردو يتذكر المقالة بينما تلى چيرونيمو الفقرة:

إن الوطن هو المكان الذي يجد فيه الإنسان، كـحيوان بائس منحط، ما يتغذى
به، ويجد من يضاجع، امرأة كان أو رجلاً. حسب الأفضلية).

_شيء جميل!

والحق يقال فإن جوميز غنضب وصاح بأن الصحيفة فقدت مصداقيتها. أما خوسيه لوبيز الذي كان يضحك فلم ينتقد إلا الجزء اللواطي. وسخر من جوميز.

- أنا، مثلاً، ولدت فى البرازيل ولكن تعليمى كله كان فرنسياً... وما أنا فيه، مدين به إلى فرنسا. أيهما وطنى؟ وإذا نشبت حرب بين البرازيل وفرنسا. مع أيهما أحارب؟...

سأل چيرونيمو:

ـ وما رأيك في المشكلة السياسية؟ إن الحركة الفاشية تتنامى والدعاية الشيوعية تغطى كل شيء.

أجاب ريكاردو وقد أخذ سمت العالم:

_ لا أحبذ هذا أو ذاك. وصلى البرازيل ألا تستورد نظماً سياسية. فحتى هذه اللحظة ونحن نستورد كل شيء، حتى الدستور، فهل نجحنا؟ علينا أن نؤمم كل شيء، من نظم الحكم إلى المومسات... لا شيوعية ولافاشية... لا بولنديات ولافرنسيات...

_ ريكارود، حـذار! إن هذا الحاتم في إصبعـك يسبب العـدوى: البلاغـة... فهأنذا شيوعي... _ كاد ريجيه أن يختنق بقطعة لحم وقفت في حلقه.

وتدخل چيرونيمو غير مصدق:

_ شيوعي، أنت؟ أيها الارستقراطي؟ قل ذلك لأحد آخر...

- ولكن يا ريجيه إن الشيوعية رائعة من الناحية النظرية... لكنها في التطبيق كارثة. المساواة، المساواة... بعد ذلك يقوم العمال الذين يمحكمون، بجلد الشعب... وهذه هي الشيوعية في التطبيق.

_ من أجل ذلك بالتحديد أنا شيوعى... فالشيوعية سوف تجلد البرازيليين ثلاث مرات في البوازيل أنا شيوعى عملى. إن العلاج الوحيد الناجع للبرازيلين هو السوط...

ـ ها، ها، ها! ها أنت أصبحت تيسيانو آخر.

مسكين تيسيانو، أصبح شبه أعمى ومع ذلك يواصل السخرية من الحياة، متعالياً...

_ أحياناً، أعتقد أن تيسيانو على صواب وأن حياتنا ما هي إلا سلسلة من التعاسة والإحباط... وأن السعادة لم تخلق من أجلنا...

ــ أن نحيا لمجرد الحياة... ربما، ولكننى لا أريد أن أسلم، لا يزال لدى أمل... طأطأ ربيجيه رأسه موافقاً:

ـ وأنا كذلك.

اعترض چيرونيمو.

_ إذن فأنا مع تيسيانو.

همس ريچيه إلى ريكاردو:

_ وفقاً لنظريات تيسيانو يكون چيرونيمو الموحيد من بيننا الذي يشك في أنه سعيد...

_ ذلك لأنه يخشى أن نحكم عليه بأنه أقل منا...

ثم أخذوا يتحدثون عن النساء.

_ إذن فقد نسيت (چولي، تماماً يا باولو؟

_ بلى. فالشهوة يا ريكاردو، وأنا أوافقك تماماً، ليست كل شيء في الحب...

_ أخيراً... ألم أقل لك؟ لو كنت تحبها أيضاً بقلبك، مانسبتها قط...

_ بلاشك... ولكننى أعـــتقد أن الحب لم يعــد له وجود. ربما كان مــوجوداً من قيل. واليوم، لم يعد هناك إلا الشهوة... التي لا ترضيني، صحيح أن...

ـ لا تزال هناك حالات الحب العاطفي والزواج السعيد والوله...

ـ نعم، في روايات ابيريز إسكريش).

* * *

وأمام باب السينما المضاءة. كانت المعجزة. كانت عينا (ماريا ديه لورديس) الغائمتين تبتسمان، وكانت شفتاها تبتسمان أيضاً لباولو ريجيه. كان يشعر أن قلبه يغنى أغنية الفرح. وظل هناك يتأملها. يالهما من عينين! واسعتين سوداوين

حزينتين... أخلقتا من الضباب أو من الشك؟ وهذا الشعر الكستنائي الذي يحلم بأن يكون أشقر... شلال من الشعر (نمم إنها البلاغة، نعم!) شفتان طريتان متعطشتان للحب... على باب السينما، كانت النساء ملتحمات في فوضى، وكان الشباب ينتهزون هذه الفوضى ليداعبوا الفتيات.

همت ماريا ديه لورديس بالدخول إلى السينما. أسرع باولو إلى شباك التذاكر. دفع ماثتى ألف رايس وترك «الفكة»... ودخل سع ماريا ديمه لورديس دون أن يسمح للجسورين بأن يلمسوها كما يفعلون مع الأخريات.

داخل قاعة السينما، كان العرض قد بدأ منذ قليل. ظلت واقفة بجوار إشبينتها التى كانت جالسة في آخر مقعد في القاعة المزدحمة ـ كانتا قد اتفقتا على تناوب الجلوس. كلما تغير البرنامج تتبادلان الأماكن، فتجلس إحداهما وتظل الأخرى واقفة.

وعلى الشاشة. كان «توم ميكس» الفارس النيل من الأريزونا يحقق ماآثر جديرة بالعصور الوسطى، لكى يفوز بقلب حبيبته. كان باولو ريچيه الذى يقف وراء «مارياديه لورديس» يحدثها كثيراً. كان شعرها يفوح بعطر نفاذ (ثمن القنينة من هذا العطر فى بوتيك «سو أو سياس» مائتا ألف رايس. ولكن لا أحد يصدق أنه يساوى أقل من أربعين ألف رايس. فصاحب البوتيك يدعى بأن هذا العطر من البضائع المهربة...)

أما باولو فكان يشكى لها من خواء حياته والحزن الذي تجلبُه عليه الوحلة.

«أترغبين في أن تكوني إلهة وجودي؟... أن تصبحي سيدة قلبي...» وأخذ يتغزل في عينيها الجميلتين... وشمرها... وكل شيء فيها. كانت تبدو في مظهر شرقي... وكأنها شهرزاد أتت لتقص عليه حكايات رائعة لتدخل السرور إلى قلبه. إنها جميلة جداً... لابد أن تكون طيبة أيضاً...

كانت تبتسم وهى تشاهد القيلم. ولكنها لم تكن ترى بوضوح فعلى الشاشة، كان وجه القوم ميكس، يختلط بوجه باولو ريجيه الذى كان يواصل الحديث وراءها...

عندما تغير البرنامج أضيئت القاعة وهمت الإشبينة بالنهوض لكن مارياديه لورديس طلبت منها أن تظل جالسة: ﴿ إِبقى يا إشبينة، إننى مرتاحة في وقفتى هكذا. ﴾

خرج باولو ربجيه من السينما وروحه تفيض بالسعادة. كان يود أن يصرخ بملء رئتيه: «لقسد وجدت السعادة!» تبع ماريا ديه لورديس حتى منزلها. صعد منحدر «لاديرا دى بيلورينيو» محاذراً أن يتعثر بالأحجار النائثة في الطريق.

توقفت الجماعة التي ترافق مارياديه لورديس أمام مبنى عال يوحى بأنه مقبرة. كان السلم غارقاً في العتمة حيث لا وجود لشعاع واحد من الضوء. على الباب، كانت الجارات يتبادلن تحية المساء. أمام الباب، كان ريجيه يدخن سيجارة ويلف لورديس بنظرة منيمة مفعمة بالحب.

أما هي فكانت في غاية الأناقبة في ثويها المتناسق، وكمانت تنظر إليه خملسة وهي نشوانة. عندما ذهبت النسوة بادرت دوناهيلينا شبه نعسانة:

_ هل تصعد؟

صعدتا، وقبل أن تغيبا في العتمة، داعبت مارياديه لورديس بنظرتها الغائمة البهجة الوليدة لباولو ريجيه.

ظل حوالى نصف ساعة ينتظر ظهورها فى أى من نوافذ الطوابق الثلاثة. لم يكن يعرف أن هذه الغرف البائسة ليست لها نوافذ تطل على الشارع. لاشىء سوى باب يفتح على السلم القذر... وفى النهاية، أصيب بالإحباط وذهب فى الشارع يلغدن...

كان الأصدقاء باستثناء بيدرو تيسيانو الذي لم تعد عيناه تجابهان ظلمة الليل ـ كانوا في الحانة كالعادة. كانوا يستمعون إلى چيرونيمو سواريس الذي كان يقص حكاية مثيرة جداً عن أحد نقاد الأدب في قباهيا والذي فوجئ بنقود تصله من مثقف مجهول لكي يقوم بتقريظ ديوان شعر على وشك الظهور. أما ريجيه الذي كان يسبح في بحر من البهجة فقد أبدي طيبة لم تكن معهودة فيه حتى ذلك الوقت:

_ هيا. يجب ألا نهتم. بل يجب أن نسامح ونعفو... في الحياة، علينا أن نغفر دائماً. الرجال الأسمون عليهم أن يحبوا القريبين منهم...

سخر منه جوميز:

_ والقريبة منهم على الأخص.

- دعك من نكاتك الغبية يا عزيزي... لقد قلت ياريجيه...

ـ علينا أن يحب أحدنا الآخر. وألا نبالي بمن هم ليسوا في مستوانا...

يجب أن نغفر لهم دائماً... إن ما يفعلونه من أشياء غبية ومثيرة للهزء لن يدهشنا... لأنهم أقل منا. إنهم لا يدركون ما يفعلون...

ـ يراقو مسيوا

- لم أكن أعرف أن لك قلبا كبيرا...

کان خوسیه لـوبیز مؤیداً لرأی ریچیه ـ بینما اعتبـره (ریکاردو) و (چیرونیمو) (احدی نکات باولو).

تدخل ريكاردو براس:

ـ لاينبغي أن نغفر للحماقة. لا ينبغي لنا، ولن نستطيع... أينبغي لي إذن أن

أغفر للغباء المطبق لهؤلاء الخلاسيين الذين يصدرون مجلة تسئ إلى قواعد اللغة والأدب في بلادنا؟

الخطأ ليس خطأهم. فليسوا هم من خلقوا أنفسهم أغبياء.

أسف چيرونيمو لأن بيدرو تيسيانو لم يكن معهم ليسمع اكتشاف باولو ريچيه للعواطف النبيلة.

- ولكن عليهم أن يفهموا سطحيتهم وألا يظهروها.. إننى أعدر الأغبياء المقتنعين يتفاهتهم. أما أولئك الذين يتصورون أن لهم قيمة فلا...

كان رأى خوسيه لوبيز هو الذي أقنع الجميع:

_ أعتمقد أنه ينبغى ألا نهمتم بهؤلاء الناس... وألا نوليهم أهمية... لماذا تفكر في هؤلاء الأوغاد؟ من الأفضل أن نتجاهل وجودهم...

وأكد جوميز وهو ينفث في الجو دخان سيجاره:

_ وهل هم موجودون حقاً؟ هل وجودهم حقيقة؟ إنهما يحيون ولكن لا وجود لهم...

_ لماذا أنت سعيد جداً اليوم، يا باولو؟

ربما لأنتى اليوم قابلت السعادة... من كان يعرف أننى سأكتشف الطريق اليوم... وأن الغاية لم تكن بعيدة عن متناولي...

رد خوسیه لوییز مندهشاً:

.. هل تحب يا ريجيه؟ إنـك أهل لها. إن من يقولون إنهم عقلاتـيون مثلك هم أكثر الناس عاطفة.

- ـ لا أحد يعرف أين ينتهى العقل وأبن تبدأ العاطفة...
- _ إنك عرضة للعواطف المقاجئة... انظر لقصتك مع الحولى". لقد كنت تحب هذه المرأة.
 - كنت أرغبها. وهذا كل ما في الأمر.
 - ـ حذار يا باولو، حذار، لاترتكب حماقة...

لم يكن خوسيه لوبيسز ليقلق. ففى الحقيقة لم يحدث شىء. لقد غازل فى السينما فتاة جميلة رومانسية. كان يهمس فى أذنها بكلام ساذج. إنها حتى لم تتكلم. كانت تبتسم فقط. صحيح أن ذلك أرضاه كثيراً. ولكن لم يكن هناك شىء ذو أهميسة... وعلى الرخم من أن خوسيه لوبيسز أوصاه بأن يحترز فإن ريكاردو براس فعل العكس اذا نصحه بأن يواصل مقامرته.

- ربما يكون ذلك بداية سعادتك. ليس لأحد الحق في أن يتركها تفلت... أنا شخصياً بمجرد أن تظهر لى المرأة المشالية سوف أنزوج. أؤكد لك أن سيدة السعادة هذه إذا كانت في متناول يدى فإنني سأتشبت بها...

. دعك من ذلك! إن الحب ليس غاية الحياة بالنسبة لأحد. لا الحب ولا الزواج. إن الحب لايقضى على عدم الرضا والقلق. هذا القلق إنه شيء أكثر جدية. أعرف أن قول تيسيانو صحيح. إن المشكلة ذهنية خالصة...

ـ إنك تغير رأيك بسرعة. منذ أيام كنت تؤكد أن علم الرضا هذا هو مسألة عواطف وقلما يكون من العقل. وأنا أويد ما قلته ذلك اليوم يا أخى العزيز...

ـ إن المسألة خليط من العاطفة والعقل. ولكن العقل وحده الذي يقرر. إننى قلت أيضاً إننا النصل إلى السعادة عن طريق العقل... وإن العاطفة قد ترضى الإنسان لكن ليس العقل. إن الحب الإيحل المشكلة وبالتالى...

ـ إنه يحلها.. إن الأشياء الإنسانية والطبيعية وحدها هي التي تعطى البهجة والسعادة للحياة.. هل فهمت؟

ـ نعم فهمت ولكنتى لا أوفق. كل ذلك شيء بسيط. نعم، الفلسفة والمعارف الفلسفية يمكنها أن تمنح بعض العزاء. بل ربما تحل المشكلة. أما أنا فأفكر في حلها على النحو التالي...

- الفلسفة، عجباً! إنها الأشياء الطبيعية وحدها: الحب والغريزة والإيمان والعمل هي التي ترضينا... الأشياء المشتركة بين الناس فقط...

ـ كلا. إنها الفلسفة وحدها.

أخذ ريجيه يشرح موقفه:

ـ لقد فشلت فى البحث عن حل فى الغريزة وفى الجسد. وها أتذا أبحث عنه فى الحب العباطفى. وإننى لعلى استعداد أن أبحث عنه حتى فى الدين... لكن ليس فى الفلسفة. فالفلسفة تؤدى بنا إلى فوضى رهيبة. إنها تفتح لنا خمسين درباً ومع ذلك يصعب السير فيها.

_ بالضبط!

- ولكن كيف يمكنك أن تصل إلى الدين بغير الفلسفة؟ إننى أفهم أنك تصل إلى الحب عن طريق الحواس. لكن الدين؟...

- سوف أبلغه عن طريق العاطفة. دون قراءة أبحاث، ودون معرفة بـ «ماريتان» أو «القديس توماس». سأكون كاثوليكياً ولن أكون «تومائياً» قط...

- هذه مزحة يا باولو. لن تبلغ الحب ولن تصل إلى الدين استكون تيسيانو آخر فى الحياة. دونما شبجاعة على تحيقيق ذاتك. سوف تحييا لتكون موجوداً فحسب...

ـ كلا. سأحاول. لكن لماذا خوسيه لوبيز مستثار اليوم؟

_ لست مستشاراً. كل ما في الأمر أن لدى مزيدا من الإحباط. بل إني لا أؤمن حتى بالسكينة... وتيسيانو يقول إننا اشحاذون السعادة ...

. إنه على صواب. إننى أرى أن تيسيانو حل مشكلة قلقنا. وقلق العالم كله اليوم واحتفظ لنفسه بالسر... فهو لا يكترث بالحياة... ياله من سعيد!

_ هو سعيد! إنه متشكك. إنه يضع نفسه فوق الحياة. يجلس في صفوف المشاهدين ولايحيا. إنه يعلق ويسخر وينتقد. يدمر وهذا كل ما في الأمر. إنها ليست سعادة إنما عبادة القلق والتعاسة. إن تيسيانو يرى أن قيمة الجمال تكمن فقط في الألم. وبما أنه يضع الجمال فوق كل شيء فهو يحب الألم. يعشق أن يكون مهزوماً ويفخر بفشله. لقد كتب ذلك اليوم «النزهة الرمادية لشكوكي»، وهو كتاب نصفه فولتيرى (١) وتصفه أبيقوري (٢). لا ليس أبيقورياً فهو لايشعر حتى ببهجة الحياة. بل يشعر باللامبالاة... ويؤكد أننا سوف نصبح مثله. وكنت أصدقه أحياناً فأصبحت كما تراني اليوم. نقضت آرائي وأصبحت مثل الاسطوانة لتردد مايقوله بيدرو تيسيانو على موائد الحانات...

أبدى ريچيه ملاحظة:

- من الغريب أنشا نصارع بيدرو تيسيانو بيسما هو أستاذنا. لقد تعلمنا معه الشك واللامبالاة. ونحن الآن نحارب الشك... وتيسيانو يشيد به.

_ إنه يشيد به ولكنه يسخر منا، فهو يعرف أننا في نهاية المطاف سنقر بأنه على صواب...

ـ نعم، فتحن أخيراً مدينون له بما نحن فيـه. فهو قبل كل شيء صديق، لامبال أو شكاك ولكنه صديق إلى آخر المدى.

⁽١) فولتيري: نسبة إلى فولتير.

⁽٢) أبيقوري: محب للحياة، منفمس في اللذات.

_ إن قانون الحياة عند تيسيانو هو العلم كيف تكون صديقاً وتعلم كيف تكون عدواً». أخذ خوسيه لوييز يرثيه فهو شبه أهمى، المسكين! يالها من مأساة حياة هذا الرجل متعدد المواهب، الذي ينتهى هذه المنهاية، فلا يستطيع أن يخرج من بيته ولايقدر على القراءة... نهاية فظيعة!

تناولوا الكأس الأخبر. ووزع باولو ريجيه الصدقات على الشحاذين والمتشردين الذين، كانوا أمام الكاتدرائية، قد فرشوا أوراقاً على الأرض - السرير الأكثر نعومة المتوفر لهم ليريحوا أجسادهم المتعبة...

أطرى چيرونيمو شفقة باولو:

.. أنت الذي كنت دوماً تحارب الصلقة هه؟ سوف تنتهى يسوماً لأن تصبيح من دراويش مولد القديس (بونفيم»...

ثم أضاف متحذلقاً:

_ إن هؤلاء الناس يعانون من المأساة الحقيقية الوحيدة... مأساة الجوع...

قاطعه خوسيه لوييز:

_ إطلاقاً. إن مأساتنا نحن أكبر بكثير.

ـ إن جوعنا هو جوع الروح.

كان بابلو ريچيه يحلم بماريا ديه لورديس.

سوف يشعر بمتعة هائلة في صباح الغد، في مداعبة الكتاكيت وإلقاء الحبوب إلى الدجاج، داخل سور الحديقة... يالروعة الحياة البرجوازية، داخل محيط الأسرة...

وإذا تزوج؟ سيكون له ولد يعلمه أن السعادة تكمن في الحب...

ظل جمالساً في الكرسي المتسارجح، يتسامل. كان يفكر في مساربا ديه لورديس، وفي الزواج والأطفال وفي ييدرو تيسيانو.

ثم نهضه وهو يفكر:

.. سينتهي بي الأمر إلى الانتحار...

تمسحت قطمة بساقه. ركلهما ولكنه ندم فحملها بين يديه وسار إلى النافذة وأخذ يبثها شكوكه.

ولكن القطة الرزينة فضلت ألا تسدى نصحاً... رفعت رأسها الارستقراطى ونظرت إليه بتمعن ثم أخذت تلحس قدميها. قطة حكيمة عاقلة غسلت يديها من مشكلة باولو ريجيه...



كان ريكاردو براس يحب الذهاب يوم الأحد إلى قداس العاشرة فى الكاتدرائية. كان ينهض مبكراً، ويرتدى ثبابه بكل أناقة ممكنة. ولهذا السبب كان خوسيه لوبيز ينعى عليه ضياع اليوم. كان يصل إلى الكنيسة فى الوقت الذى يكون فيه القداس قد انتهى، ويبقى فى الخارج بجوار الباب يستمتع برؤية طابور الفتيات الأنبقات اللاتى جئن يمر غن ركبهن على أرضية المكان المقدس.

ذات يوم، وبينما كان هناك يرقب فتاة غاية في الرشاقة شعر بمن بجلبه من ذراعه فاستدار:

ـ أهو أنت، انطونيو؟

تبادلا التحية وتعانقا. إنه المحامى أنطونيو منديس زميل دراسته، شاب غنى، من أسرة معروفة.

- أنطونيو، إنك تعرف كل أولئك الفتيات. أتعرف تلك التي ترتدى الثوب الأسود؟
- طبعاً. إنها فتاة فقيرة... أقبصد أنها ليست غنية. ولكنها أنيقة جداً. أتريد أن أقدمك لها؟

ـ نعم، أريد ذلك.

اتجها إلى حيث تقف الفتاة. كانت ترتدى ملابس أنيقة جداً، وكانت شاحبة ذات عينين وسنانتين. لم تكن جميلة جداً ولكنها جذابة فحسب.

- أوه، دكتور أنطونيو! كيف الحال؟
- بخير. وأنت يا دونا مرسيدس، كيف حالك؟
 - ۔ بین بین۔۔۔
- ـ وأنت يا آنسة روث، كيف تسير الأمور معك؟
 - ـ لا يأس، شكراً.
- أود أن أقدم لكما صديقى الممتاز، الدكتور ريكاردو براس. لقد تخرج توا في نفس اللغمة ممي. إنه أيضاً شاعر.
 - أوه، كلا يا آنستى! بل صحفى فحسب...

كانت روث تعرفه. إنه يعمل في «لاستادو دا باهيا»، أليس كمذلك؟ وكانت ترى ريكاردو دائماً!

- أين ذلك يا أنستي؟

بادرت دونا مرسيدس تشرح الأمر:

- _ إننا جيران الدكتور بيدرو تيسيانو...
 - آه ! مديري العزيز...
 - ... وإنك تأتى دائماً إليه.

_ هذا صحيح. إن تيسيانو صديق عزيز بالنسبة لي.

استأذن انطونيو منديس، وبقى ريكاردو. إنه ذاهب بالمصادفة لتناول الغداء مع بيدرو تيسيانو. أصطحبهما إلى الترام فيصعدا. وأخذت المحادثة مجراها في هدوء. كان ريكاردو مبتهجاً لأن روث تعرف ديوان شعره.

_ إذن لقد كونت فكرة سيئة عنى.

_ كلا، بالعكس. لقد أعجبنى الديوان كثيراً. أمى التى لم تعجبها إحدى القصائد.

_ أي قصيدة؟

ـ تلك التي تسمى اباردة ١. إنها جانة بعض الشيء.

_ فعالً...! «باردة»... إن أصدقائي هم الذين أصروا على ضمها إلى الديوان...

كان ريكاردو يفكر في أشعاره. لقد كان يعتبر (باردة) أحسن قصائله.

وهذه القصيدة بالذات هي التي لم تعجب أم روث...

أمام باب البيت قالتا له أأن يأتي وقتما يشاء لكي يثرثروا؟.

ـ قد أُسْرِف في تلبية الدعوة...

ـ سوف نسعد بذلك...

دخل ريكاردو عند تيسيانو الذي كان يسكن غرفة تطل على الشارع لدى إحدى العائلات. ولكنه اضطر أن يرحل ليسكن مع ابنه المتزوج. لأنه كان يراه بصموية... كان كل جسده يؤلمه. سوف يموت عند ابنه. على الأقل لن يموت وسط الأغراب...

- تيسيانو، لقد أتيت لتناول الغداء معك.

_ إن ما يكفى فرداً هنا، من المكن أن يكفى اثنين...

* * *

كانت الاستادو دا باهيا تعتبر رابحة... ولكنه كان ربحاً عكسياً. كانت تكسب بالكراهية. وكان كل الناس يشترون لاستادو دا باهيا ليعرفوا من الذى ستوجه إليه السهام هذه المرة.لم تكن جريدة فضائح. بل كانت تقول الحقيقة فى شجاعة. والجريدة التى تقول الحقيقة فى ياهيا، تقول أشياءا أسوأ بكثير عما تقوله أكبر جريدة فضائح فى الكون.

ولولا وجود المنازعات الدائمة بين «بيدورتيسيانو» و «جوميز» لكان جوميز قد تقدم بشكل رائع. ولكن المديرين الأثنين كانت لهما مناقشات عنيفة. كان جوميز برغبته المحمومة في الثراء يريد أن يفرض نوعاً من الرقابة على مقالات تيسيانو الذي كان بدوره يرفضها تحت أي مسمى. فكانا يتشاجران ساعات بأكملها. لم يكن جوميز يوافق على مهاجمة شخصيات يمكنها إمداد الجريدة بالمال.

وكان تيسيانو يعلن:

- لن أشارك في جريدة تعتمد على الابتزاز.

وكان جوميز يصرخ بأعلى صوته:

- ليس ابتزازاً، إنها سياسة، عليك اللعنة!

كان خوسيه لوييز يقوم بشهدئة الموقف، وكانت المقالة تنشر دائماً بعد أن يتم تخفيف حدتها. وكان بيدرو تيسيانو يقبل راضياً. بينما يواصل جوميز تذمره:

- بهذه الطريقة لن نربح أموالا أيداً...

لم يكن يفكر إلا في كسب المال، في الثراء. ألم يكن ذلك ما يفعله الوغد؟ إنه يسكن الآن في شارع كبير ويدخن السيجار الغالى (ويقال ولكن أحداً لا يصدق) إنه يرتاد بيوت الدعارة...

كان يحلم وهو ينظر إلى الدخان المتصاعد من سيجاره ويقسم أنه اعندما يمتلك ألفى اكونتوس، سيكون سعيداً.

* * *

أمضى باولو ريحيه عدة أيام يذهب إلى هضبة «بيلورينيو»، ولكنه لم ينجح في رؤية ماريا ديه لورديس. وبدأت صورتها تتلاشى من ذهنه حتى كان في عصر أحد أيام، ذاهباً في سيارته (كان فيما قبل يذهب ماشياً...) فرأى ماريا ديه لورديس خارجة من بيتها. أوقف السيارة وهبط بسرعة. ابتسمت له حين رأته.

- _ ظننت أننى لن أراك ثانية...
- _ وأنا كذلك، لولا هذه المصادفة التي أتت بك الآن... إلى أين أنت ذاهب؟
- _ لست ذاهباً إلى أى مكان. لقد مررت متعمداً أن أراك. لمقد أتيت إلى هنا أياماً متنالية ولم أستطع أن أراك. إنك لانطلين من النافذة...
 - ـ هنا، حيث أسكن لاتوجد نوافذ ياسيدي...
 - ـ لا تقولي سيدي. فذلك فيه من الرسميات كثير...
- .. حسناً. هنا حيث أسكن لا توجد نواف.ذ. إنها غرفة داخلية. إننى فيقيرة جداً... وأنت... تبدو غنياً جداً. سيارتك فيخمة جداً! لا يمكن أبداً أن تحب فتاة مثلى. أنا الذي كنت أظنك موظفا في شركة تجارية سأكون سعيدة معه!...
 - _ لاتقولي ذلك... ما اسمك؟

ماريا ديه لورديس سامبايو. وينادونتي «لوردينيا». وأنت، ما اسمك؟

ـ باولو ريېيه.

أبدت اهتماماً بما يقوم به من عمل. كانت تحب المحامين كثيراً لكن لاتبدى وداً للصحفيين. لأن دونا هيلينا (التي كانت لها خبرة في هذه المسائل) كانت تقول إن الصحفيين متقلبون جداً. أرادت أن تعرف أي المهتين يمارس أكثر: المحاماة أم الصحافة؟...

ـ في الحقيقة إنني صحفى، لأنني أعمل في الصحافة، بينما لا أمارس المحاماة. ولكنني صحفى من نوع آخر.

ـ متقلب؟

- لا. فعندما أحب، أحب بعق...

وأخذا يتقابلان كل يوم. كان يحب مذاجتها وحزنها، ويحب الحب الذي تمتحه إياه بهذه الرقة التي تظهرها نحوه. لم يقابل أبداً إنساناً أحبه بهذا الشكل. وبدأ يؤمن بأن السعادة تكمن في الحب.

* * *

رحلت الأسرة البروتستانتية التى تسكن الطابق الرابع. وفى اليوم التالى استأجرت امرأة ابطالية الطابق كله لتجعل منه «بنسيوناً». وعرف باولو ريجيه فقد أخبرته ماريا ديه لورديس. طرأت له فكرة. كانا ينتزهان كالعادة وعند رجوعهما وبينما كانا واقفين على السلم جذبها إليه.

_ ياعزيزتي، سأعمل لك مفاجأة في الغد.

تلامس خداهما وقبلها كثيرآ

_أوه! باولو...

_معذرة ياخطيني الصغيرة...

على السلم كانت جورچينا تضحك سعيدة لأنها ضبطت ماريا ديه لورديس متلبسة. وخلال خمس دقائق كان كل الجيران قد عرفوا أن ماريا ديه لورديس تقوم في الأسفل بتصرفات شائنة كل يوم مع الدكتور باولو، الشاب صاحب السيارة الذي يكتب في الجريدة.

قالت دونا هيلينا:

_ إن المنظاهرات بالتقوى هن الأسوأ.

وكانت دونا يومبينيا في غرفتها الكثيبة قلقة، تسمع كل شيء وبها رغبة محمومة لأن تكذبهن وتقتلهن.

عندما صعدت لوردينيا كانت كل ساكنات الطابق ينضحكن هازئات. مرت لوردينيا ثابتة الأعصاب.

استجوبتها إشبينتها. كذب! چورچينا هذه تريد أن تثير فضيحة! لقد قبلها ذلك اليوم ولكنه ناداها (بخطيته الصغيرة) سوف يطلب يدها. وألقت بنفسها في أحضان إشبينتها وظلت تبكى.

举条券

كان ريكاردو براس مهموماً. لم يعد أحد يراه تقريباً. أقام في جريدة «لاستادو دا باهيا» مكتباً للمحاماة. وأمضى أياساً ينتظر أول «زبون». كان يريد أن يتزوج. كان يحب روث وكانت روث تحبه. ولكن راتبه الهزيل كان يمنعه من التفكير في الزواج. كان يشقاضي خمسمائة ألف رايس من البلدية بالإضافة إلى مائتي ألف

رايس من جريدة الاستادو دا باهيا؟. لم تكن هذه المبالغ تكفى للعيش، وفوق ذلك فهو لن يقبضى كل حباته فى الأعمال الكتبابية كموظف صغير. أخذ يتألم وهو يفكر فى الوسائل التى تمكنه من الربح الوفير.

- _ لو أن لي عقلية لص مثل جوميز!
- _ الكلب! ليذهب إلى مكان آخر...

قال له والد روث حينما يصبح قادراً على إعاشة زوجته فليأت لبطلبها. ولكنه لن يتركها تموت من الجوع. كلا! وأخذ ريكاردو يشد شعره من اليأس.

_ ها أنذا ألس السعادة فتهرب مني... يالها من لعنة!

كان بيدرو تيسيانو يلقى ببعض اللعنات:

ما اطلب من السماء ألا تجد المال. هكذا فقط سوف تتجنب أن تكون تعسآ... إن الزواج لن يمنحك السعادة يا ريكاردو...

- ـ تعس، أنا؟ إنني أعرف نفسي جيداً يا بيدرو.
 - ـ ولكنني أعرفك أكثر...

幸辛辛

والآن، تكاد المشاغل أن تبتلعهم. ريكاردو يكرس كل وقته الروث، وباولو ريجيه لم يعد يفكر إلا في ماريا ديه لورديس. وخوسيه لموبيز انكب على القراءة أكثر من ذى قبل، وأغرق نفسه في كتب الفلسفة، فعاش صراعاً عنيفا. كان موزعاً بين الشهوانية والروحانية. وكانت يبحث عن أصدقائه ليناقشهم لكى يتحرر من عبئه. ولكن أصدقاءه لايظهرون إلا قليلاً. كانوا مشغولين بالحب، وكانوا يذهبون إلى إدارة تحرير للجلة فقط ليقدموا مقالاتهم على عجل. وأصبح

بيدرو تيسميانو لايطاق، وكانت سخريته تزداد مع الوقت، أجمابه عندما حدثه عن المسألة:

_ إن الروحانيين لايعرفون الروح، والماديين لا يعرفون المادة. إن الشك هو الموقف الوحيد. ها أنت ترى الفوضى الحديثة. بل إننى أنا المشكك أنخرط فيها وأشعر بها، ولكنها مع ذلك لاتهزمنى.

_ ولكن ألا تشعر بالقلق؟ ألا تشعر أن شيئاً ينقصك؟

- أشعر بالقلق والشك. ولكنى على المعكس منك، لا أبحث عن حل لهذا القلق وهذا الشك بل لقد جعلت منهما غاية حياتي. ففيهما توجد سعادتي. واليوم الذي أتوقف فيه عن الشك، وأعثر على اليقين، سيكون من المستحيل على أن أحيا.

_ كل ذلك قديم ياتيسيانو. إن جيلك يقدس الشك، أما جيلي فيحاربه.

_وذلك يعنى ببساطة أن جيلي أرقى من جيلك.

_ إن حال جيلنا هو نفس حال أدب ما قبل الحرب وأدب ما بعد الحرب... أحدهما أدب ألفاظ والآخر أدب أفكار.

ـ ليس ذلك تماماً، وحتى لو كان ذلك صحيحاً فإننى مع أدب ما قبل الحرب. فأنا عندما أقرأ مقالة فإننى لا أريد أن أعرف ما إذا كان كاتبها لديه أفكار جيدة أم لا، أو إذا كانت المقالة مفيدة أم لا، ما أريد أن أعرفه هو ما إذا كان كاتباً أم لا، يكتب جيداً أم لا. ولكن الحقيقة أن الأدب الأناتولى (١) به أيضاً أفكار جيدة ويقدم حلولاً، ويوصى بأن يشك المرء دائماً. أهلا حل أم لا؟ إنه يضع الجمال

⁽١) أناتولي: نسبة إلى أناتول فرانس، الكاتب الفرنسي (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤). (المترجم)

نوق كل شيء. إنكم تقبلون فسكرة الله لأن الله نافع. ونحن ننكرها لأننا وجدنا أنها لاتحقق مثالنا الجمالي.

ـ إنكم أتانيون للغاية، ذاتيون أحياناً.

.. أما أنتم فتمارسون الأنانية فى أحقر صورها: النزعة الإنسانية. نحن نريد ارستقراطية الذكاء والروح، وأنتم اليوم تدافعون عن أرستقراطية القوة. إنكم مستولون عن إفلاس المذكاء... إن الثقافة وحدها هى التى لها قيمة، لأن الثقافة وحدها هى التى لها فائدة.

_ ولكنك فشلت.

ـ نعن، لأن كل نصر في الحياة هو فشل في الفن...

ـ لقد مضى وقت التناقضات ياتيسيانو.

_ فعلاً، وجاء وقت تقديم الحساب...

* * *

استيقظت ماريا ديه لورديس وهي تغنى. كان صوتها عذباً يرن في كل الطابق. أطلت برأسها من النافذة على سطح الجيران. وفي نافذة الطابق الرابع، كان شاب يقرأ باهتمام وعرفته ـ

ـ باولو!

م لوردينيا! ألم أقل أننى سأعمل لك مفاجأة؟ لقد استأجرت غرفة هنا لأكون أكثر قرباً منك...

وأتى فى المساء إلى السلم ليثرثر معها. كانت الظلمة تعم المكان. قبلُها كئيراً. وانزلقت يده تحت قميصها ووصلت إلى ثديها. وتركته يفعل. ثم تعانقا.

_ باولو...

ـ حبيبتي لوردينيا...

تواترت الأيام على هذا النحو، والحى كله لا يشحدث إلا عن فضيحة حب الشاب الغنى وماريا ديه لورديس. كانت جورچينا تؤكد أنها فوجئت على السلم بأوضاع فاحشة لاتوصف. وكانت تحكى لصديقاتها عن أشياء مذهلة. كيف عَرَفت هذه الأشياء؟

كانت تراقبهما، هي والأخريات، من خلف الباب. كان يأتي ويأخذها على ركبتيه وكان يقبّلها ويدعك ثدييها. كن يتساءلن كيف لا نزال عذراء...

دمدمت دوناهیلینا:

_ أليس هناك مكان آخر... المتظاهرات بالتقـوى... المتظاهرات بالتقوى... لم تعر ماريا ديه لورديس أذناً لهـذه الأشياء، وكذلك فعلت إشبينتها. ولكى يخرس باولو ريحيه ألسنة الجميع طلب ماريا ديه لورديس للزواج. وقامت هى بدافع الثأر بتقديم شيكولاتة لكل سكان الطابق، واستمتـعت بالتهانى المفعمة بالحسد. ولكن في المساء، عندما تأوى إلى الفراش كانت إسشبينتها تسمعها تبكى كنثيراً، ولم تكن تسألها عـما بها. إنها الفرحة بطبيعة الحال. لكن ماريا ديه لورديس وحلها التي كانت تعرف لماذا تبكى. فلم تكن لديها الشجاعة لتقول الخطيبها عن ذلك الشيء الذي يعذبها...



كانت ماريا ديه لورديس بمفسردها تسترجع حياتهـا تمر أمامها كفـيلـم سينمائي. كانت تتذكر الوقت الذي أمضته مع أوسفالدو. لـم تكن بلغت الخامسة عشرة.

مجرد طفلة لم يكن لها من الحياة إلا مفهوماً غامضاً مما يتعلمه التلاميذ على مقاصد الدرس. كان أوسفالدو قد دخل عامه الثامن عشر حينما دخل لأول مرة أحد المواخير. وعرف ما هو الجسد. لكن في عجلة ودون تفكير. وبدأت خطويته لماريا ديه لورديس (خطوية أطفال) تأخذ منحنى آخر. وهي، بكل سذاجة، سلمت نفسها إليه.

ذات يوم _ إنها تتألم كلما تذكرت يوم سقوطها _ صحبها إلى غرفته، وخرجت من هناك سعيدة. ظلت فترة طويلة تجهل معنى ما حدث. لم تعرف إلا عندما ذهبت لتسكن في «بولورينيو»، ومن خلال الأحاديث مع هيلينا وچورچينا فهمت أن البنت التى تسلم نفسها لرجل لاتستطيع الزواج، لأن التقاليد تعتبر أن الشرف يكمن في الجسد الذي لم يمس.

ظلت تحتفظ بسرها في صمت. وعنلما بدأ بالووريجيه يحبها بدأت هي تعانى. لم تكن لديها الشجاعة لتكشف له عن سرها الرهيب. وكان هو غيوراً

جداً... حتى من أوسفاللو الذى مات (بعد أن استهلك رئتيه فى المواخير) كان يغار ـ ماذا سيحدث عندما يعرف الحقيقة! ولكنها ستقول كل شيء. سوف تخبره حتماً، آجلاً أو لاحقاً... لماذا تخونه؟ لم يستطع باولو ريجيه فهم السبب وراء أحزان ماريا ديه لورديس. لم يصدق أى من أصدقائه حكاية خطوبته. ولاحتى ريكاردو براس... إنها نكتة من باولو، يرددها... خاطب هو؟ ها، ها،

كان جوميز يضحك بجنون:

_ ألا تجلون ذلك مضحكا؟

ومع ذلك كان باولو ريجيه خاطباً. وكان لايريد تأجيل الزواج. سوف يتزوج فوراً حتى لايدع السعادة تفلت منه. سوف يقضى بعض الوقت فى أوربا... كلا، ليست أوربا. لن يعود إلى أوربا حيث تعلم الشك. الآن وقد حل مشكلة حياته ووجد غايته، لن يعود إلى بؤرة اللامبالاة والضجر هذه... سوف يذهب إلى أرضه. بالنسبة له، لن ينتهى شهر العسل أبداً... ثم ماذا؟ بعد السعادة فى كل الأيام... ماذا بعد؟ هذه السعادة نفسها.

كان بيدرو تيسيانو يرشف قهوته في جرعات صغيرة حين سأل:

_ ألن يشبع باولو ربحيه من ذلك الهناء العائلي؟

- كلا باتيسيانو. فحتى اليموم لم أنعل شيشاً سوى البحث عن السعادة. ووجدتها. فهل سأملُ منها؟

وأبدى ريكاردو براس شكوكه:

م لكن أحقاً خاطب أنت؟

- نعم با ريكاردو. أنا خاطب منذ أيام.

ومن هي الخطيبة؟

- فتاة قابلتها في الحياة. فقيرة جداً لكنها طيبة جداً.

وتدخل خوسيه لوييز موضحاً:

_ خلاسية من عائلة مجهولة. لم أكن أتصور أن يسقط باولو إلى هذه الدرجة من الغياء...

- اسمع ياخوسيه. سأقول لك شيئاً. إذا تكلمت ثانية عن خطيبتي بهذا الشكل، فلن تكون أي علاقة بيننا.

وبدأ باولو غاضباً، ينهض بحزم ولكن لوبيز أجلسه ثانية.

_ لتكن مشيئتك ياعزيزى. لن أتكلم بعد الآن عن خطيبتك فائقة الاحترام... والآن جاء دور ريكاردو براس في الانصراف.

_ إلى أين؟

.. سأقابل أحد السياسيين البارزين وصل اليوم من بلدتى. حيوان بمعنى الكلمة! وفوق ذلك، من المعارضة. لديه نفوذ في بعض المناطق. بإمكانه أن يجد لى شيئاً. فأنا كذلك أربد أن أتزوج...

* * *

_ كل مومس لها مأساة يا چيرونيمو. أتحب أن ترى؟

ونادى بيدرو يتسيانو امرأة كانت تمر في الشارع.

ـ يابنيتي احك لنا إذن. لي ولهـذا الصديق الذي هو (آخر الرومانسيين) كيف

انتهبت إلى هذه الحياة، هذه الحياة الفظيعة التي تعتبرها النساء المتزوجات سهلة... لم تنتظر أن يرجوها ويلح عليها. بدأت تحكى وعيناها منكستان، تعتصر بين أصابعها طرف قميصها الفضفاض. يعتريها شيء من الخجل. جميلة هذه المرأة! عيناها واسعتان زائغتان. وفمها صغير تتراقص فوقه ابتسامة تدعوك في عفوية. لاشيء فيها ارستقراطي. غوذج الفلاحة الجميلة.

مثل كثير من الفتيات... كانت تعيش فى «نازاريه» مع والديها. كانت تخيط. وكانت تخيط. وكانت تكسب المال أيضاً. وذات يوم مر رجل غنى وأنيق. كان يتنزه فى الحى، ولوح لها بالزواج والبيت الجميل والسيارات. فى ذلك الوقت كانت لا تزال تعتقد فى الرجال. بعد ذلك، تركها ضائعة، وأنكرها أهلها. فجاءت إلى باهيا. تلك هى قصتها، قصة كثيرات غيرها.

- لتعيشى مأساة المومسات اللاتى خلقن ليكن ربات بيوت، على كل حال يابنيتى لقد نجوت من مأساة أسوأ. وهي أن تموتى عذراء...

. ضم جيرونيمو قبضته محتقراً تيسيانو. هذا الرجل الذي يروق له أن يسخر من شقاء الآخرين. البائس...

ابتعمد بيدرو تيسيانو ببطء. وظلت الفتاة بلا حراك مستغرقة في ذكرياتها. جميلة جداً أعطاها جيرونيمو عشرين ألف رايس، دون أن يراه تيسيانو.

ـ شكراً. إنك طيب جداً...

※ ※ ※

كانت الحانة مزدحمة. وكان البرجوازيون الكادحون يجلسون إلى الموائد، هنا وهناك، يجرعون كؤوسهم باستمتاع. وكان تيسيانو يتكلم بحدة منتقداً جماعة

من السياسيين. كان يتلو هجائية يسخر قيها من مشاهير «باهيا». دخل سكير إلى الحانة وتذرع بأنه لا يطلب صدقة إنما يريد أن يشرب كأس «كاشاسا» (١)...

ناداه تيسيانو وأعطاه عشرة قروش.

_ خلد أيها البائس، إنها نصف ما في جيبي.

_ لن أشرب. لا يا سيدى.

_ اسكت أيها الأبله! إننى أريدك أن تشرب... يجب أن تشرب. إنك تحب الحمر، اليس كذلك؟ إذن اشرب. لابد للإنسان أن يرضى غرائزه دوماً... إننى أحب السكيرين لأنهم غير تقليديين.

خرج السكير مترنحاً دون أن يفهم.

تدخل خوسيه لوبيز ثائراً:

_ إذن لابد للإنسان أن يكون عبداً لغرائزه؟

_ أتفضل الإنسان ذا التقاليد؟

كان بيدرو تيسيانو في ذلك الوقت، يسكن مع ابنه. ضعف بصره كثيراً وكان يشعر بضعف عام. الموت يقترب. لكن ذهن تيسيانو ظل كما هو. فهو دائماً الصحفى المناضل والهجّاء اللاذع.

كان ابنه لا يريده أن يكتب. يجب أن يكف عن هذه الحياة. وأن يظل بالبيت لا يخرج، وأن يترك الثرثرة اليومية. لماذا يواصل الكتابة، كل يوم مقال أو حتى تعليق؟ ومع ذلك يحصل على أجر هزيل... كان جوميز يسرقهم. يدفع لهم جميعاً أجراً هزيلاً. هم الذين يساعدونه كأصدقاء بينما هو يشرى. أخذ تيسيانو بشكو:

⁽١) مشروب كحولي قوى يقطر من قصب السكر. (المترجم)

- عندما كنت في الثامنة عشرة، كان أبى يضايقني بسبب ميولى الأدبية، والآن فإن ابني هو الذي...

انضم إليهم ريكاردو براس الذي اصطحب لتوه السياسي المشهور ابن بلدته. ذهب الرجل مسروراً. لأن مقالة الاستادو دا باهيا عم الصورة حققت نجاحاً.

ـ لقد وعدني الرجل بكل شيء! ستفرح روث...

ـ إنكما مغفلين، أنت وريجيه ! هيا تزوجا، وادخلا في التفاهة التامة. لنكن صرحاء، ستتزوجان لتمتلكا خطيبتيكما ولكن بمجرد أن يتم إشباع غريزة الجنس...

ــ إنك تخطئ تماماً إذا فكرت بأننا ننزوج فقط لنتمكن من مـضاجعة خطيبتينا. إننا نتزوج لأننا في حاجة إلى الحنان. إننا نريد الجنس والعاطفة...

ـ قـبل أن تشبع غـريزة الجنس ستكـون قد أشبعت عـاطفتك. لقـد كنت أنا متزوجاً و...

_ إطلاقًا! إننا نشعر أن هذا الحب هو غايتنا.

كان خوسيه لوبينز يخبط جبهته. لقد أحضر شيئاً يريد أن يريه إياه. أخذ يستجمع نفسه ثم بدأ يقرأ:

• الآنسة عاطفة. الآنسة عاطفة، أحبك، أحبك كثيراً، أعبدك، لماذا تهرب عيناك من عينى عندما نتحدث؟ لماذا هذا الحزن الذي يجعل خديك شاحبين أحياناً! لماذا لا تحكى لى كل شيء، وتفتحى لى قلبك على مصراعيه؟ آنسة عاطفة تعرفين عاماً أننى أحبك كثيراً...

_ من الذي كتب هذا الهراء؟

- ـ كلام مبتذل...
- _ إنها يوميات الغد.
- أنت الذي كتبت ذلك ياريكاردو؟
- لا بل ريجيه. لقد طلب منى أن أكتب يوميات الغد.
 - م باولو ريحيه، الهجّاء اللاذع... العنيف جداً...؟
- نعم. باولو ريحيه الذي كتب ذات مرة «قصيلة الخلاسية المجهولة».
 - _ باللشفقة!
 - ـ لقد ضاع هذا الولد...

عندما قرأت ماريا ديه لورديس يوميات باولو ظلت مستندة بمرفقيها على المنضدة وعيناها مثبتتان على الصحيفة حيث كانت دموعها تتساقط.

ـ سأحكى له عن كل شيء. لاشيء أفعله غيىر ذلك. إنني أعرف أنه لن يغفر ليي ليغفر لي يغفر لي يغفر لي يغفر لي يغفر لي يغفر لي يغفر لي يعفر ل

وسرعان ما فقدت شجاعتها. فقد كان غيوراً جداً... كان يكفى أن تنظر لرجل آخر، ولو بدون قصد، حتى تثور ثائرته. كانت تحبه كثيراً. يا إلهى! إن لم يغقر لها (كان غيوراً جداً من الماضى!) ستموت من الألم. لن تصمد.

- ـ فيما تفكرين يا لوردينيا؟
- _أوه، «چارديلينا» ا أهذه أنت؟

كانت أخت لوردينيا (لم تتذكرها أبدأ قبل خطبتها لباولو ريجيه، الذي هو في نهاية الأمر شاب غني. والآن فإنها تعاود زيارتها باستمرار) قد أنهت دراستها كمعلمة. وكانت تحب كتب ماريا ديه لورديس ومجلاتها.

كانت الجارديلينا» تتعجب من أن باولو ريجيه لايريد لأختها أن تغادر هذا المكان الموبوء.

م لقمد أراد. لقد أراد أن يكون لنا بيستاً. لكن اديندينيا ا بوسساوسها هي التي رفضت.

- طبعاً. وماذا كان عليها أن تقول؟ عندما يتزوج نعم. في الوقت الحاضر أنا التي أقوم بمصاريف البيت. وهو، مع ذلك، يعرف أنني على صواب.

ـ ومتى يتم هذا الزواج؟

- خلال الشهرين القادمين. إن باولو يريد أن يتنزوج فجأة، دون احتفال، ودون أن يخبر أحداً...

ـ باله من رجل غريب الأطوار! وبعد ذلك، أين ستمضيان شهر العسل؟

- لا أعرف. ربما في باريس، وربما في الريف...

ـ أتسمحين...

قبل باولو ريچيه يد لوردينيا ثم قبل يد دونا بومبينيا وسلم على چارديلينا.

ـ كيف حالك با دكتور باولو؟

- بخير، وأنت كيف حالك؟

كان باولو لا يطيق أخت ماريا ديمه لورديس. كان برى أن لها رأساً متآمرٍ. وأنف ببغاء. وكان يشرح لخطيبته أن من لهم أنف ببغاء ليسوا ضعافاً.

ـ كتا نتحدث عن زواجكما يا دكتور. متى إذن؟

ــ هذه الأيام. سوف تعرفين يوم زواجنا..

- _ ألن تدعواني إلى حفل زواجكما.
- ـ لا، لسبب بسيط، فلن يكون هناك احتفال. فمجرد أن نتزوج سوف نرحل.
 - _ يالغرابة الرجل، يا إلهي! وأين ستذهبان بعد ذلك؟
- _ إلى الولايات المتحدة لنقوم بجولة... لم أر الولايات المتحدة. وهذه فرصة. تمنمت جارديلينا بتغنج:
 - _إنني أفضل أوربا، وأنت بالوردينيا؟
 - _ أنا؟ مايريده باولو.

نظر كلاهما للآخر. في عينيها حزن كبير. وفي عينيه فرح كبير...

السعادة بعيدة جداً ... السعادة قريبة جداً.

* * *

أعلن ريكاردو براس:

ـ سوف أذهب لأنام.

وأيده خوسيه لوبيز وهو ينهض نعسان واضعاً يله على فمه الذي يتثاءب:

_ وأنا أيضاً.

كان جومسيز قد انسحب منذ قليل. لأنه ذاهب في الفد في رحلة إلى السيرتاو، فقد ذهب إلى منزله مبكراً.

واقترح ريچيه:

ـ سوف اصطحبك في سيارتي.

ـ وأنت يا چيرونيمو ألن تأتي معنا؟

ـ لا، سوف أبقى. سأحج اليوم إلى الشوارح... إنني عاطفي...

ابتعدت السيارة وعندما اختفت عند منحنى الشارع. بدأ چيرونيمو يمشى على غير هدى. كان يستعرض حياته قبل أن يقابل تيسيانو وبعد أن قابله. كانت حياته فيما قبل سعيدة جداً... كان يعيش حياة أولئك الذين ليست لديهم مشاكل. فيما بعد، حطم هذا الرجل الغريب كل مقدساته _الله والوطن والحب. لم يكن يعرف ما إذا كان عليه أن يشكر بيدرو تيسبانو. ولكن الحقيقة أنه بدأ يشعر بأنه تعس. وكانت رغبة عارمة في أن يعود إلى حياته الأولى تعتصره. ولكنه كان يخاف من أن يوصف بالتافه... نادته امرأة من النافةة فاستدار، وعرفها. إنها المومس التي تحدثا معها بعد الظهر. دخل.

ــ ألم تعرفني؟ لقد تذكرتك على الفور بمجرد أن رأيتك.

وسحبته إلى غرفة النوم.

تحدثا معا. كانت لاتطيق هذه الحياة، فكل الناس يسيئون معاملتها، وفوق ذلك فهى لم تتعلم أن تبتسم للرجال، ولمذلك فهى لاتكسب ما يقيم أودها. واستولت شفقة كبيرة على قلب چيرونيمو سواريس. نسى أصدقاءه، ونسى بيدرو تيسانو وسخرياته. نسى أن «الشفقة على الآخرين معناها عدم الشفقة على أنفسنا». ونسى أنه «لايجب أن نعانى من أجل الآخرين، وألا نتألم لألمهم. فالآمنا تكفينا».

كانت الفتاة تبكى مسندة رأسها على كتفه. أعطاها مائة ألف رايس وطلب إليها ألا تضاجع أحداً تلك الليلة. دهشت من أنه لايريد أن يبقى، وأنه حتى لم يذهب معها إلى القراش.

_ سأعود غداً.

. _ إنك طيب جداً...

(طيب جداً لدرجة أنها خجلت من أن تقبله في فمه، وهو ما كانت تفعله مع كل الرجال. قبلت يديه. وكان هو الذي قبل شفتيها طويلاً.)

كانت السماء مرصعة بالنجوم، وبدا القسم المكتمل كممثلة عجوز وسط فتات شابات.

كان چيرونيمو يشعر أنه سعيد. بدأ في تلك الليلة يعود إلى حياته الماضية. وبدأ يتحرر من تيسيانو. إذا نجح في ذلك فسوف يبلغ أقصى درجات السعادة. كانت لديه كل مقومات ذلك. كان طيباً وغبياً...



أثار الإعلان فضيحة. كانت المدينة كلها تتكلم عنه. بعض السادة المهمين من ذوى المياقات البيضاء (كان هناك بعض الناس تلتصق هيبتهم بالباقات المنشاة التى يرتدونها) أدانوا بأعلى صوتهم هذه الإهانة التى لحقت كل العباقرة فى البرازيل. وعندما سمع بها الطلاب نظموا مظاهرة عدائية ضد جريدة «لاستادوا دا باهيا». ولكنهم عندما علموا أنهم سيواجهون بالرصاص عدلوا عنها.

إن الطلاب، أمل الأمة البرازيلية، لا يهاجمون إلا المساكين البؤساء، الذين لايقدرون على الرد. أحدث الإعلان ضجة كبيرة لدرجة أن أحد النقاد في «ريو» كتب مقالاً يعلق عليه. لقد وصفه بأنه رائع. وفي مقابل صوت العاصمة توارت «باهيا» واكتفت بالهمهمة. كل ذلك بسبب إعسلان نشرته «لاستادو داباهيا» في ربع صفحة، تحت عنوان بالبنط العريض:

انريد رجلاً عبقرياً للفن البرازيلي،

بلغت أصداء الإعلان حتى منطقة «السيرتاو» حيث كان جوميز يتجول. وفى إحدى المدن رفض المحافظ أن يعطى الإصلانات المحلية إلى جريدة «الاستادو داباهيا». فالجريدة قامت بحملة ضد الوطن ونسيت أن «باهيا»، دون ذكر بقية البرازيل، بها رجال عباقرة. تعب جوميز في الحصول على الإعلانات. عاد غاضباً

إلى العاصمة في وقت كان تبسيانو على وشك أن يدمر له الجريدة. لايمكن أن تمر الأمور هكذا.. إطلاقاً...

* * *

قال له باولو ريجيه:

ـ سوف نتزوج السبت القادم، ونرحل في نفس المساء إلى نيويورك... كانت ماريا ديه لورديس ملتصقة بكتفه، تبكي.

- ـ ماذا هناك يالوردينيا؟ ألست سعيدة؟
 - ـ بلى، ياباولو. لكن...
 - ـ... لكن...
 - ـ ... أريد أن أقول لك شيئاً.
 - قولى ياعزيزتي.
- ـ ليس الآن. هذا المساء. فهنا كثير من الناس. هذا المساء سنقوم بنزهة وسوف أقول لك...

أمضى ماتبقى من فترة مابعد الظهيرة فى تلهف مجنون. ماذا لديها من أمر خطير لتقوله له؟ له كان يشك دوماً فى أنها تحتفظ بسر. وهذا الحزن... وشعر باولو ريچيه أنه فريسة لقلق بالغ. وبدأ يخشى أن يفقد السعادة القريبة منه، وأن يرى نفسه من جديد فى الفوضى بلا هدف. كانت ماريا ديه لورديس تبكى طوال فترة مابعد الظهيرة. فمصيرها سوف يتقرر. سعادتها أو شقاؤها. وجاءها هاجس بأنه لن يغفر لها.

كانت الليلة أجمل من أي ليلة أخرى. ليلة تناسب العشاق. وقبل أن يخرجا

تبادلا قبلات طويلة على السلم. كان لديهما إحساس بأنهما يقبلان بعضهما لآخر مرة. مشياً طويلاً في الشارع دون أن ينبسا بكلمة. كان قلقاً بسبب ما وعدته ماريا ديه لورديس بأن تكشف له عنه. لم تواتها الشجاعة لتحكى له عن كل شيء. فقرر هو أن يبادرها:

_إحك ياحبيبتي الصغيرة...

حكت له وهى تنتحب قصة حبها مع أوسفالدو، وكيف كانت ساذجة فسلمت له نفسها دون أن تعى. إنها تستحق الغفران ولكنها لم تقل له ذلك الأنها تخشى ألا يغفر لها. هل سيغفر لها؟

أما هو الذى كان يتألم ويعانى فقد طلب إليها أن تحكى كل شىء باختصار شديد. شعر أن أضواء المدينة تنطفىء شيئاً فشيئاً، وأن الظلمة تزحف رويداً رويداً داخل روحه. السعادة تتلاشى. كانت المدينة كلها سوداء. تعلقت ماريا ديه لورديس بعنقه تقبل شفتيه وتعضهما. عاد الضوء بعنف إلى المصابيح الكهربية. ولكن روح باولو ريجيه لا تزال فى الظلمة.

قال وهو يشبه السكران:

ـ هيا بنا...

اصطحبها إلى بيتها وتركها على السلم تبكى.

ورحل يستنشق الهواء بملء رئتيه، وبه رغبة شديدة في أن يضرب المارة، وأن يبصق في وجه النساء، وأن يتلفظ بألفاظ قبيحة...

استغرب أصدقاؤه هيئته.

سألوه ماذا بم. (الشيء، الشيء، وليتركوه لوجه الله. طلب من النادلة كأس

«كاشاسا». شرب كثيراً. وفي نهاية السهرة بكي من الغضب، وحكى الأصلقائه عن تعاسته. سأله جيرونيمو:

ـ والآن ماذا ستفعل؟

_ وهل أعرف! هل أعرف! هل لى رأس لأفكر؟.. لا أريد أن أفكر فيما سأفعا.!

ورأى ريكاردو أن أفـضل شىء يفـعله هو أن يشـزوج. أفـضل حل. لاشك أن ماريا ديه لورديس مخلصة. عليه أن يتزوج. ألم يكن ضد التقاليد؟

واعترض خوسيه لوبيز:

- لايمكن هزيمة التقاليد بهذه السهولة. فهناك تسعة عشر قرناً وراءها ا إنها ميراث فظيع...

رانك على صواب ياخوسيه. لا أستطيع أن أهزم التقاليد. أشعر أنها جديرة بحبى. لكنى غير قادر على الزواج منها. إننى حيوان، تركت سعادتى تفلت منى...

اصطحبوه إلى بيته. وظل معه ريكاردو براس لبنام هناك، فقمد يرتكب

تحدثا بقية الليل. قرر باولو ريجيه أن يذهب في الغد إلى ماريا ديه لورديس ويتزوجها. لم لا؟ ما شأنه بالماضي؟ كان يصارع، ومع ذلك شعر باستحالة أن يقطع الصلة بالماضي وأن يستأصله من ذاكرته. لماذا حكت له عن كل شيء؟ لماذا لم تتركه على عماه؟ كان بإمكانهما أن يكونا سعيدين للغاية...

وفى الغد، مر عدة مرات أمام بيتها، لكن لم تواته الشجاعة ليدخل. قال الخوميه لوبيز:

- إننى بائس! تعس! ضيعت سعادتي بسبب خطأى ا لأتنى لم أنجح في هزيمة التقاليد! أبله، مغفل أنا...

كان جوميز فى حاجة إلى من يذهب إلى دريو، لاجراء مقابلات مع زعماء الحركة الشورية الظافرة. وعرض باولو أن يذهب وعلى نفقته. ليس هناك أفضل من ذلك بالنسبة للجريدة!

ورحل باولو ريچيه.

وفى «ريو ديه چانيرو» طاف بكل الكباريهات، وعاش فى عربدة دائمة لكى ينسى مارياديه لورديس. كان وجهها يتراءى له فى قاع الكأس التى يشربها يتضاءل ويتضاءل...

وفى عصر أحد الأيام، قابل أحد معارفه القدامى، الدبلوماسى خوسيه آوجستو الذى كان يسير فى الشارع يطوح بعكازه.

ناداه باولو ربچيه. كان في حاجة إلى مثل ذلك الرجل بالتحديد، غيى ومغرور، ليثرثر ويتسلى وينسى.

ربت الديلوماسي على كتفه بحرارة.

- _ أنت هنا يادكتور ريچيه؟ في نزهة؟
- ـ لا. لقد أتيت لأجرى مقابلات مع زصماء الثورة. الآن أنت مطمئن، أليس كذلك يادكتور خوسيه أوجستو؟
 - _ كيف ذلك؟
 - ـ مع انتصار الحركة الثورية ستحصل على وظيفتك كسفير.

رجاه خوسيه آوجستو ألا يحدثه عن ذلك، لقد ذهبت مخططاته سدى. لم يكن ذلك بسبب صديقه الوزير. أما هو، وفي ظل الضربات التي لحقت بالعاملين بالوزارات، فيعتقد أنه سعيد بأن يبقى سكرتيراً للسفارة. وأتى بإشارة تنم عن الغضب.

ـ لقد جاءت الثورة بالإحباط. ونحن الوطنيين الحقيقيين الذين أيدتاها أصبنا بالإحباط. لابد من ثورة أخرى لكن عليها هذه المرة أن تقطع رأس كثير من الناس...

وبحركة مسرحية هممس في أذن باولو ريجيه بالكلمات الأخيرة. إن الظروف الحالية لن تدوم طويلاً. إن الجيش يثور لأقل...

لاحظ باولو ريجينه أن الشعب لم يكن راضياً. ولكن ألم يطالب الشعب بالثورة؟ وهو نفسه قد حضر اجتماعات كان الخطباء فيها يدعون إلى الثورة «التي تنتزع البرازيل من حافة الهاوية»...

ـ لقد أغرقتها الثورة في الهاوية بأصديقي، لقد أغرقتها.

كيف يحدث الآن وبعد بضعة شهور أن يحتج الشعب على الظروف؟ هل يريد أن تقوم الحكومة بإصلاح البلاد في شهرين؟

_ ليس ذلك. إنك لا تعرف فضائل الشعب البرازيلي. إن شعبنا لايمتدح إلا من كان في المعارضة. ولم يحدث أبداً أن ساند حكومة مهما كانت جيدة.

- فضيلة أليس كذلك؟ شعب كرنفالي...
- أتعرف يادكتور ريحيه من سيذهب اليوم إلى المنفى؟
 - .¥_
- إنه النائب الباهياني السابق الذي عرفتك به. الدكتور أنطونيو راموس.
 - _ آه. نعم! هذا الحمار...
 - ـ نعم إنه... ولكن لليه زوجة، الحيوان!

- ـ ستذهب هي أيضاً إلى أوربا بطبيعة الحال...
 - ـ لا، إنها سوف تبقي.
- ـ ولكنى أعتقد أنها تعشق باريس، فلماذا لا تنتهز الفرصة؟

- لأنه في ريو ديه چانيه و، الحياة بدون زوج جنة... أفضل من باريس. وصل أتوبيس خوسيه آوجستو. اتفقا أن يتقابلا في المساء. وصعد الدبلوماسي إلى الأتوبيس وهو يحيى هذا أو ذاك بسخاء من اتخذ النفاق مهنة له.

وفى الفندق وجد باولو ربعيه رسالتين بانتظاره. كانت إحداهما من أمه، رداً على برقيته التى يخبرها فيها برحلته، تطالبه فيها بأن يكتب لها رسائل. وكانت الرسالة الأخرى بتوقيح ريكاردو براس يطلب منه النصيحة، فالسياسى، ابن بللته الذى أصبح الآن في السلطة مع انتصار الثورة، يعرض عليه وظيفة وكيل نيابة في إحدى مدن الداخل في ابياوى». الأمر طبيعي، ولكن الحياة هناك لانساوى شيئاً. سوف يعيش مع زوجته (نعم، لأنه لن يقبل هذه الوظيفة إلا لكى يتزوج) كما أنه يستطيع أن يشتهر كمحام (فكونه وكيل نيابة لايمنمه من الترافع في القضايا يستطيع أن يجنى المال. سوف يجد السعادة أخيراً مع روث. ما رأى ربجيه؟ إن خوسيه لوبيز وتيسيانو وحدهما لايريدانه أن يتزوج. افسوف يكون تعساً... خوسيه لوبيز وتيسيانو وحدهما لايريدانه أن يتزوج. افسوف يكون تعساً... سوف يكون تعساً... الموف يكون تعساً... الموف يكون تعساً... الموف يكون تعساً الله أسوأ. لم يكن مفر من القطيعة بين تيسيانو وجوميز. وامتنع خوسيه لوبيز عن التدخل أنت وحدك الذي...»

الرسالة:	ملي	رداً	ريجيه	بالو	كتب	٠,

 بنقس قدر تعاستى الآن. فيمع شخصيتى... وغيرتى... كانت الحياة ستصبح جحيماً. لى ولها. ولكن إذا كنت متأكداً من أنك ستجد فى الحب وفى الزواج هدف حياتك فلا تستمع إلى نصائح ولا تصغى لأحد. تزوج وعش حياتك. وإذا أصبحت تعساً؟ رصاصة تحل كل شيء. تحل كل مشاكل الحياة.

إن خوسيه لوبيز عندما تعرض عليه هذه الرسالة سوف يقول إنني اقترح عليك علاجاً لم أرده أنا. وسوف يبتسم تيسيانو مؤكداً أننى بمثل غباء فارجاس^(۱). لكننى لم أنتحر (بأى أسى أعترف لك ياريكاردو!) لأتنى لم أكن أملك الشجاعة. ففي كل مرة كنت أضغط فوهة المسدس على أذنى كانت يدى ترتعش. لم تكن لدى الشجاعة، كنت جباناً. ولذلك لا أزال أحيا ولا أزال أعانى.

ولكنك إذا نسيت أنك، قبل كل شيء، فنان وشاعر وأنت تمارس المحاماة يمكنك أن تكون سعيداً.

حل مشكلتك بنفسك ياريكاردو، ولا تصغ إلا لرغبتك في السعادة. سآتي في خلال يومين لأهدئ من غضب جوميز باللقاءات المثيرة التي أجريتها.

* * *

أعاد قراءة الرسالة. لاحظ أنه كتب اهي ابحرفين كبيرين. فشطبها وكتب مكانها اهي بحرفين صغيرين. كان وهو مكانها اهي بحرفين صغيرين. كان وهو ينظر من النافذة إلى البحر المتماوج يفكر في حالة ريكاردو براس.

- المسكين! قد يتحول إلى تعس. قد يتحول إلى سعيد. فليحاول إنها مسألة

⁽١) جيتوليو فارجاس (١٨٨٣ ـ ١٩٥٤) أحد رؤساء البرازيل انتمخب في ١٩٣٤ مارس حكماً استبدادياً ولكنه حقق بعض الإصلاحات الاجتماعية. انتحر في ١٩٥٤. (المترجم)

هامة أن يحاول المرء أن يكون سعيداً. أنا لم أفعل حتى ذلك. لقد كنت مغفلاً... ومع العشاء جاءت صحف المساء.

أخذ باولو ربحيه بتفلسف:

_ إن المعدة وحدها التي لا علاقة لها بمآسينا. إنها مستمرة في طلب الطعام ينفس الطريقة.

كان يفكر بأن الوعى والمعدة يعملان بنفس الكيفية، وبرهن لنفسه على:

ـ أن الرجل الغنى اللص يرقد ومعلته مرتاحة، ويستغرق فى النوم كأنه أطهر عباد الله. ولكن المسكين الذى يرقد ومعلته خاوية هو البائس الذى لا يستطيع النوم لأنه نادم على أنه لم يسرق...

وانقض على طعام العشاء.

قرأ الصحف. كان الشعب ساخطا لأن الحكومة لاتريد أن تمنح الإعانات المالية القررة للأندية الكرنفالية.

وابتسم باولو:

- بلاد الكرنفال! بلاد الكرنفال! لو كنت رئيساً أو ديكتاتوراً كنت أقرر إقامة كرنفال لمدة ٣٦٥ يوماً... كانوا يعبدونني...

كانت الأضواء في المدينة تنافس النجوم. وكان مصباح كهربي كبير ينافس القمر. وكانت الإعلانات المضاءة تقترح علاجاً للمرضى الأغنياء.

كانت السيارات تمر وبها أناس أغنياء ذاهبون إلى المسرح.

- الرحمة بحق الله!

كانت المرأة النحيفة _ وكمانها جلد على عظم _ المسلولة تشجول وهي ترضع طفلاً يتراقص الجوع على وجنتيه.

أعطاها باولو ربحيه ورقة نقدية في لهفة كبيرة لأن يبدو طيباً.

كانت السيارات الفارهة تتوالى.

- م فليسعدك الله.. ليجعلك في سعادة...
- _مستحيل يا أختاه! لقد ولد الشقاء معي، الموت وحده الذي يخلصني...
 - أى إنسان لم يجرب الجوع لا يعرف الشقاء ياسيدى الطيب. -

كان إعلان عن أحد الأدوية يستخدم عبارة السيد المسيح: الا يحيا الإنسان بالخبز وحده. خذ الفورسول؛ ردد باولو ريچيه:

ـ لا يحيا الإنسان بالخبز وحده... ولكن أين يعثر على السعادة ليأخذ منها؟



حدثت القطيعة التى لا مفر منها وتخاصم جوميز مع بيدرو تيسيانو. وتضامن الآخرون مع تيسيانو وإن كانوا يعلمون أن المدير التجارى لجريدة الاستادو داباهيا، على حق.

عندما وصل باولو ريجيه من ريو حكى له خوسيه لوبيز الموضوع:

- تصور أننا كنا نتحدث عن الكرنفال. وأكد ريكاردو أنه من المستحيل اليوم كتابة قصة عن الكرنفال بها بعض الأصالة. فما يكتب هو دائماً نفس القصة. أب يعطى كمامل الحرية لإبنته، وفي الكرنفال يقابل فشاة متنكرة بشكل جذاب فيصطحبها إلى غرفة وعندما يعريها يكتشف أنها ابنته. من المكن طبعاً أن يتم استبدال الفتاة بالزوجة أو الأخت أو الجدة.... ولكنها دائماً نفس القصة...

ـ نعم.

كنت مؤيداً لرأى ريكاردو. وبذل تيسيانو جهده في أن يكتب قصة أصيلة عن الكرنفال فتحديناه، وفي اليوم التالي...

ــ ماذا حدث؟

- نشرت «لاستادو دا باهيا» القصة التي أحدثت القطيعة.

- أصيلة؟

- في غاية الأصالة. وأكثر من ذلك أنها لا أخلاقية. أتعرف القصة التي تخيلها تيسيانو؟ أرمل لديه ثلاثة أبناء. الأول، أكبرهم طالب بإحدى الأكاديميات يتردد على ملاعب كرة القدم. والثاني لم يكن ولذا بل بنتاً. والأصغر صبى في الرابعة عشرة، أدخله أبوه مدرسة داخلية. الفتاة التي تربت على الطريقة الأمريكية كانت تسيء استعمال الحرية الممنوحة لها. ويأتي الكرنفال ويصف تيسيانو ببراعة مهرجان الغرائزة. يرتدى العجوز قناعاً ويذهب للهو. كانت كل الأسرة خارج البيت. وكان من المفترض أن الابن الأصغر نائم في المدرسة الداخلية. وفي إحدى الحفلات يقابل الأرمل قواماً جميلاً متنكراً... فيرقصان ويشربان ويثرثران. وعند منتصف الليل يبحثان عن مكان آمن. وينزع العجوز القناع فجأة عن صاحبه فيكتشف مرعوباً...

ـ ... ابنته؟ مثل الآخرين!

- لا ياعزيزى. ابنه! ذلك الذي كان بالملرسة الداخلية. لقد هرب من المدرسة، واستأجر ملابس تنكرية وذهب ليرقص...

ــ أوه، أوه!

- خرج جوميز عن وعيه عندما قرأ القبصة التي نشرت. «قصة شذود جنسي تحط من شأن الجريدة». ودارت بينهما مناقشات أنهاها تيسيانو بعنف وقرر أن ينسحب. وحاولنا أن نصلح ذات البين ولكن جوميز أساء فهمنا فانسحبنا نحن أيضاً تضامناً مع تيسيانو.

ـ ياله من كلب جـوميز هذا! إنـه في نهاية الأمر مـدين لك بكل ماوصـل إليه

يا خوسيه، فعندما لم يكن لديه سوى (باهيا نوفا) كنت تمده بأسباب الحياة. والآن...

- وتيسيانو الذي جعل من «لاستادو دا باهياء اسماً!
 - ـ کلب!
 - _ ندل!
 - وأردف جيرونيمو:
 - _ لقد كنت دوماً أقول إنه لا يساوى شيئاً.
- والمقابلات التي أجريتُها في ريو، ماذا أفعل بها؟ أنشرها في جريدة أخرى؟ وأشار عليه خوسيه لوبيز بأن يبعث بالمقابلات إلى جوميز.
- ـ هكذا إذن! أذهب أنا إلى ريو على نفسقتى، وأقبوم بعمد ذلك بإجراء المقابلات. فبأى مناسبة تكون لجوميز؟
 - لقد ذهبت إلى هناك لكى تجريها له. ارسلها له.
 - ـ حسناً، سوف أرسلها. ستظل دوماً ياخوسيه لوبيز نفس الإنسان الطيب.
 - وأضاف جيرونيمو:
 - الآن يدير (الستادو دا باهيا) صحفى أخلاقي جاء من الأقاليم.
 - ـ والمحررون؟
 - ـ أناس من هنا. إن الجريدة يتم تحريريها بشكل سبىء للغاية...
 - ـ سوف تحقق الجريدة نجاحاً. فبالنسبة لباهيا، جريدة فقط مثل هذه...

- ـ لقد رأيت جوميز ذلك اليوم، يزداد سمنة باستمرار، لقد أثرى النذل...
 - ـ ذكى...
 - ـ ولكنه أمي حتى الآن.
 - ـ سوف ينتهي حاكماً للولاية.
 - _ إذا انتهى.

وفي الشارع، كانت زنجية تهز أرادفها وتصبح:

ـ فول سوداني محمص! آكاراچيه وآباراس(١)!

وعلى مبعدة منها كان صبى يصرخ:

سة الاستادو دا باهيا؟ ... اقرأ الاستادو دا باهيا؟. مقالة عن غلاء المعيشة ...

* * *

كانت صورة مارياديه لورديس تتلاشى شيئاً فشيئاً من ذهن باولو ريچيه.

وكان يشعر أنه حتى لو استطاع أن ينساها فإن حياته لن تستقيم أبداً. لن يكون لوجوده هدف، لماذا يحيا في نهاية الأمر؟ كان يشعر أن حياته راكدة مثل مياه بحيرة ليس لها - كما للأنهار - غاية: أن تنساب حتى تبلغ المحيط. ولكن على عكس مياه البحيرة. وإن كانت راكدة، فإن حياته لم تكن صافية. وسيطر عليه عدم رضا هائل. كان يشعر بالحاجة إلى السعادة أو الصفاء على الأقل. أن يحيا بلا رغبات ولا أحلام مثل بيدرو تيسيانو. إن لم يجد معنى أو هدفاً للوجود فعلى الأقل يجد الصفاء. أو يصبح لا مبالياً بلا رغبات. حتى ذلك كان مستحيلاً. لم

⁽١) أباراس: طبخة شعبية تصنع من عجين الفاصوليا وتقلى في زيت النخيل. (المترجم).

يفارقه عذاب البحث عن السعادة. لم يتوصل، مثل تيسيانو، إلى تقديس الشك. عاش أوتماتاً عصيبة. كان فى البيت الريفى الهادىء، منعزلاً فى غرفته، يذرع . الغرفة جيئة وذهاباً، تسيطر عليه رغبة جبارة فى أن يقطع صلته بكل شىء، وكان ينتهى فى كل مرة تقريباً بأن يستقل سيارته ويذهب إلى بيدرو تيسيانو ليتحادثا. ثم يعد تيسيانو يخرج. يكاد يكون أعمى. وكان يستطيع بالكاد أن يتحرك داخل البيت. كانت ابنته الصغرى تقوم برعايته. وهى فتاة فى الثالثة عشرة، كانت تجد ملاذها فى التقرب من ريچيه. وكان الرجلان يتحدثان كثيراً. وكان بيدرو تيسيانو الساخر يضحك من عدم رضا باولو ريچيه ويقول له:

- ـ لماذا لا تلجأ إلى الدين ياولدى؟
- ـ ومن يدرى! ربما أفعل ذلك...
- ميا، ياربجيه كفى. حاول أن تعيش من أجل الشك. أن تعيش من أجل المعاناة. من أجل عدم الرضا الخالص. وبدلاً من أن تصارع الشك، حاول أن تعشقه. أنا شخصياً أشك في كل شيء.
 - _حتى في الشك؟
 - _على الأخص الشك...
 - _أعرف ياتيسيانو أنك وجدت حلاً. لماذا تحتفظ به بأنانية؟ لماذا لا تخبرنا به؟
 - ــ لقد قلته أكثر من مرة! إن الحل هو ألا تريد أن تجد حلاً...
 - _ هذه نکتة...
 - كما تحب...

كانوا يتقابلون قليلاً في الآونة الأخيرة. كان باولو ريجيه منطوياً على نفسه، لايقابل إلا نيسيانو. أما خوسيه لوبين الذي كان يشرب كثيراً فقد خاص في كتب الفلسفة، كان عاطلاً عن العمل وكان يغير الفندق باستمرار. وفي كل مرة كان يغادر الفندق إلى فندق أسوأ منه. أصبح نحيلاً، غير راض، كارهاً للحياة. كان يقرأ أكثر فأكثر عله يجد السعادة في كتابات «كانط» والقديس «توماس».

_ الفلسفة وحدها...

ولكن ريكاردو براس لم يوافق:

ـ بل الحب والزواج...

تزوج ریکاردو براس. وکان باولو ریچیه وخوسیه لوبیز شاهدین علی الزواج. وعرض علیه باولو أن یقضی شهر العسل فی المزرعة. بعد ذلك كان علیه أن یذهب إلی مدینة صغیرة بعیدة داخل «بیاوی».

تمتم تيسيانو:

_المسكينا

تحرر چيرونيمو سواريس من تأثير بيدرو تيسيانو. وبدأ يعيش سعيداً. كان يقضى لياليه مع الفتاة التى قابلها مع بيدرو تيسيانو فى ذلك اليوم المشهود. قرر أن يعيش معها فى أكمل سعادة... كان نادراً ما ينظهر. ولكنه فى الأيام التى يزور فيها تيسيانو كان يتخلى عن أحلامه كلها لسماعه سخريات صديقه. كان يتخيل نفسه مثل بيدرو، لا مبالياً، متعالياً، شريراً، محطماً للأوهام.

ولكنه في الليل، بالقرب منها، وبين ذراعيها، كان ينسى تيسيانو. وتعود إليه صورة بيت صغير مع كثير من الحب وكثير من الحنو. وكانت ابتسامتها هي أقصى درجات السعادة. فكان يصارع تأثير بيدرو تيسيانو. كان يشك في قدرته على التغلب عليه. وإذا لم يستطع سيبقى بائساً طوال حياته... ولن يحقق أبداً أحلامه، ولن تكون له الشجاعة أبداً في أن يكون سعيداً...

وكان بيدرو تيسيانو يرى كل ذلك مثاراً للسخرية...

* * *

كان باولو ريچيه يتجول عندما صادف دونا هيلينا التي كانت تتبختر في ثوب حديد فحيته:

_أوه، دكتور باولو! كيف حالك؟

_ لا مأس ... وأنت يادونا هيلينا؟

_ بخير...

سألته في فضول:

ـ وماريا ديه لورديس، يادكتور باولو ألم ترها؟

ـ لا يادونا هيلينا. لا أعرف أخبارها...

كانت دونا هيلينا تعرف، لقد بكت ماريا ديه لورديس كثيراً بعد القطيعة. رحلت من المسكن. بعد ذلك قبل لها إن الإشبينة حصلت على وظيفة مدرسة فى منطقة الداخل. ورحلت...

حياها ريجيه بفتور شديد:

_ وداعاً دونا هيلينا، وداعاً!

_أوه دكتور باولو! بحق الله... إنك مستعجل جداً! لنتحدث قليلاً...

إنني أسكن الآن في منزلي الخاص. ألا نريد أن تزورني هناك؟

وذهب باولو ريجيه. شعر برغبة مفاجئة في أن يمتلك هذه المرأة. كان يجمعها شيء مشترك مع ماريا ديه لورديس. ربحا كانت تتملكه الرغبة في امتلاك خطيبته السابقة وهو يضم جارتها بين ذراعيه. كان يشعر بالفعل بهذه الرغبة الغريبة.

كان يخيل له أنه يحتضن ماريا ديه لورديس وهو يحتضن هيلينا.

* * *

أصبح من المصعب أن يقابل أى من أصدقائه. ريكاردو المذى تزوج كان فى المزرعة التى أعارها له، يقضى شهر العسل. وأحس باولو ريجيه أن ريكاردو سوف يبتعد عنهم تماماً. كان يخوض تجربة السعادة. وفي «بياوى»، المدينة الصغيرة بالإقليم يعيش تجربته وهناءه البرجوازى. إنه لايريد طبعاً أن يتذكر أصدقاءه الذين ينكرون سعادة الزواج.

وفي عصر أحد الأيام المشمسة، غمره فرح هائل عندما قابل خوسيه لوبيز يقرأ كتاباً لفرويد وهو يحتسى كأساً من «الفيرموت».

- ـخوسيه!
- ـ مرحباً ياباولوا إجلس.
 - _دائماً تقرأ باخوسيه؟
 - ــ فعلاً...
- قررت أن تجد السعادة في الفلسفة؟
- وماهى السعادة إذن ياريب اهى فرح كل يوم أم ألم كل ساعة؟ إنك تعرف جيداً أن هذه السعادة لا ترضينا.

- _ ربما تكون صفاء بيدرو تيسيانو ولا ميالاته.
- ـ لا أصقد ذلك، فبيدرو ليس سعيداً. إنى متأكد من أنه يعانى من مأساة كبيرة. ولكن لاعتزازه بنفسه لا يبوح حتى لأصدقائه.
- يدهشنى ذلك. فبيدرو يرتفع فوق كل شيء. فوق حياته الخاصة. إنه متعال. لايشعر بالبهجة أو الأحزان اليومية.
- ان الإنسان الذي لا يشعر بالبهجة أو الأحزان اليومية إنسان مطمئن. ولكن هذا الإنسان المثالي لا وجود له. إن تيسيانو يشعر بها... وخاصة الأحزان...
 - _والسعادة ماهي؟
 - ـ ربما إيجاد حل في الحياة...
 - _ كىف؟
 - ـ نظام فلسفى، دين...
 - ممكن. لم يبق لى إلا أن أحاول في الدين.
 - ـ وفي ذلك أيضاً سوف تفشل...
 - _ 11217
 - لأن الدين لا يكون مرضياً إلا عندما تصل إليه بالفلسفة ...
 - _ وإذا لم نفعل؟...
 - ـ ... قد نشعر بجمال الدين، بشاعريته، ولكننا نمل منه كما نمل من امرأة...
 - إننا لا تعرف الأسس والأسباب...

- ومع ذلك فإن الشعب، الناس الجهلاء الذين لا يعرفون حتى ماهى الفلسقة يشعرون بالراحة في الدين.
 - الجهلاء نعم، ولكنك إنسان سام.
- ـ أى شقاء أن يمتلك المرء قدراً من الذكاء ا إنى على استعداد لأن أتنازل عن كل ثروتي مقابل جهل أحد هؤلاء البائسين.
 - _ أمنية قديمة لكل إنسان ذكى، ياصديقى.
 - وطلب كأساً أخرى من «الفيرموت»، وتابع خوسيه لوييز:
 - ـ لقد أنهيت رواية عن هذا الموضوع ياباولو...
 - ـ حقا؟ ومتى ستنشر؟
 - ـ لا أستطيع أن أنشرها، بأي نقود؟
 - أنا أمول النشر... سوف ننشغل بذلك على الفور.
- دفع باولو ريجيه حساب المشرويات. كان خوسيه لوييز في ملابسه الرثة صورة لحياتهم أجمعين.
 - ـ خوسيه، لماذا لا تأتي لتعيش معي في البيت؟ سأعد لك غرفة...
 - ـ لا ياريجيه، لا تكلف نفسك هذا العناء...
 - سأعطى أمراً، وتأتى غداً لتستقر.
- ـ لا ياسيدى. لا أعرف كيف أعيش عند الآخرين. هذه مسألة محسومة. لن أذهب.

فى مسكنه بالفندق الحقير، كان خوسيه لوبيز يرتب مسودة الرواية التى لم يكن قد وضع لها عنواناً بعد. كان يجهد ذهنه فى أن يجد لها عنواناً. كتب: «مرضى عدم الرضا». قرأه. لم يعجبه. شطبه وكتب: «شحاذون السعادة».

وفى الصفحة الأخيرة، بدلاً من كلمة «النهاية» التقليدية كتب: «انتهى». ابتسم خوسيه لوبيز. وشطب بالقلم كلمة «انتهى» واستبدلها بكلمة «ابتدأ» كان يتساءل عما إذا كان أحد سيفهم أنه بمجرد انتهاء الكتاب ونهاية البحث الوهمى عن معنى الحياة، تبدأ مأساة كل يوم...

كان خوسيه لوبيز يفكر:

_ومع ذلك لن تكون الرواية مفهومة. من سيقرأها لن يفهم شيئاً. إنها قصة بضع أرواح. إننى لا أصف حتى الحالة الفيزيقية لشخصياتي.... إنهم مجرد مشاعر...

وأعاد هذه الأفكار على باولو ريحيه عندما ذهبا إلى المطبعة.

_ إن روايتي ينقصها المعنى الإنساني. إنها ذاتية تماماً.. إنها حياتنا.. لن يهتم بها أحد...

_وذلك يعنى أنها رواية جيدة.

عندما غادرا المطبعة كان الوقت مساءا. كانت الظهيرة قد ماتت بلا ضبجة. مكررة ما فعلته بالأمس، وما ستفعله في الغد.

وفى الكنيسة، كان الناس يصلون، وكان الدعاء يتصاعد كأنه تضرع واسترحام.

- أنا لست بعد اشحاذاً للسعادة) ياخوسيه... وإلا كنت هناك مع المصلين...
 - _ إن الدين مثار سخرية. ومع ذلك أشعر بحاجة كبيرة للإيمان...
 - _ ولماذا لا تؤمن؟
 - ـ لا أؤمن. ربما أصل إلى الدين. وإذا وصلت سيكون أمراً حسناً جداً...
 - ـ ستصبح اتوماثيا ...
 - .. تعم، سأجد أساس الدين.
- إنى أعتقد، مثل ريكاردو، أن الأشياء الطبيعية وحدها هى التى تحقق الرضا. الغريزة وحدها يمكنها أن تقودنا إلى الدين. إن الدين لايمكن تفسيره بل يجب أن يُحس. إن الغريزة (هذه الغريزة لا علاقة لها بالمادية، كما ترى...) هى التى يمكن أن تقود إلى الدين...
 - إلى أي دين؟ إلى دين فرويد؟
 - كلا. إلى دين المسيح لكن بلا خداع...
 - ها أنت ثانية تسخر... لقد مضى ذلك الزمن...
 - لا، بل إني جاد...

* * *

لم تلاق رواية خوسيه لوبيز أى نجاح. قرأها عدد قليل. ولم يتحدث عنها النقاد. وظلت النسخ بالمكتبات. لم يفهم أحد صرخة اليأس التى كانت فى هذا الكتاب. رأى الكاثوليك أن الكتاب يهاجم اللين. وقال الماديون إن أبطال الرواية يسيرون نحو الكاثوليكية، بينما أشاع أعداء خوسيه لوبيز أن الكتاب شيوعى.

ظلت البرازيل كما هي. لا أحسن ولا أسوأ. برازيل سعيدة لا تنشغل بمشاكل، لا تفكر وتحلم فقط بأن تكون، في المستقبل القريب «البلد الأول في العالم»...

* * *

حاد ريكاردو براس من المزرعة مع زوجت وث التي أصبحت أكثر إثارة وأنوثة وهي تستند إلى كتف زوجها باسترخاء.

نظر باولو ریجیه إلى ریكاردو في عینیه، محاولاً أن یكتشف میكروب الشبع. غتم خوسیه لوبیز الذي فهم مقصده:

- لا يزال الوقت مبكراً.

قاما بزیارة تیسیانو الذی بدا متأثراً. كان یبدو له أنها آخر مرة یری فیها ریكاردو.

- ـ ستذهب إلى ابياوي، وعندما تعود لن تجدني... لن أكون هنا..
 - ـ لا تقل ذلك ياتيسيانو.
- _ إنها الحقيقة. أشعر أنى ضعيف. لكن لحسن الحظ لا أزال أراكم...

وتطرقت المحادثة لكتاب خوسيه لوبيز الذي استحسنه ريكاردو براس:

ـراتع!

ـ لأنى أحمل فى داخلى مأساة كل منكم. فشل ريجيه فى الغريزة والعاطفة. ومأساة تيسيانو فى الشك. والفشل الذى سوف تقابله حتماً ياريكاردو فى الحياة البرجوازية التى ستحياها...

. ـ سوف نري...

وسأله تيسيانو:

- _ أتعتقد أني فشلت؟
- إن وضعك لنفسك فوق الحياة هو فشل. إنك لم تنتصر في الحياة لقد ظللت متفرجاً... لقد فشلت...
 - ـ ريما... ريما...
- هذه هي مأساتي. لأنني أعرف أن شيئاً لن يرضيني وأخاف أن أصبح مثلك أنت ياتيسيانو. ومن المستحيل أن أبقى لا مبالياً بالحياة. لابد أن أعاني دوماً...
- جاءت ابنة تيسيانو الصغيرة بالقهوة، وأخذوا يتجرصون السائل الأسود ببطء في رشفات صغيرة.



بعد قليل غادرهم خوسيه لوبيز. اصطحبه چيرونيمو سواريس وبقى باولو ريچيه الذى أراد أن يمضى بعض الوقت مع ريكاردو براس الأسوف يرحل في مغامرة السعادة الى مدينة صغيرة كثيبة.

استفسر باولو قلقاً حزيناً من رحيل صديقه عنهم:

ـ لماذا فضلت أن تسلك من داخل ولاية باهيا؟ ألم يكن من الأفضل أن تسافر بالباخرة؟

ـ لا، فالرحلـة بالقطار أكثر فـائدة. سوف أذهب حـتى (چوازيرو) ومن هناك أذهب إلى (بياوي) وأمكث هنالك...

ـ سوف تترك فراغاً...

أخذ باولو ريجيه يتـأمل القطار الساكن. كـان الرذاذ يتسـاقط، وكانت روث تتدثر بمعطف يكاد يبتلعها.

قالت بتغنج:

- إن لى حقوقاً على ريكاردو أكثر مما لكم عليه. إننى زوجته... أما أنتم فمجرد أصدقائه. كان القطار الساكن يعطى إحساساً بالقلق لايمكن تفسيره.

تابعت روث وهي تطوق عنق زوجها بذراعيها:

ـ ومع ذلك، سوف أقوم... أقوم بشفائه من الأدب...

ـ هل قلت أدبا يادونا روث. أن حياتنا أدب فحسب.

وتابع كمن يحدث نفسه:

ـ ومن ذا الذي يستطيع أن يبرأ منه؟

صفر القطار. وكان في هذا الصفير الحاد الممتد شيء من الحنين يثير القلق.

ـ وداعاً بادكتور ربجيه.

_وداعاً يادونا روث.

_ ياولو ...

ـ ریکاردو...

تعانقا طويلا وظل القطار الكبير ساكناً لا مبال.

ـ قل وداعاً لخوسيه وتيسيانو.

وتابع بصوت خفيض:

ـ سأكون سعيداً ياريچيه.

_ أتمنى لك السعادة...

ثم بدأ القطار يتحرك وريكاردو في المنافذة يلوح بإشارة الوداع، وظل باولو ريجيه ساكناً ينظر إليه. ونقص الأصدقاء واحداً...

ظل وحيداً على رصيف المحطة.

_مسكين ريكاردو! كم سيصبح تعساً عندما يحل الشبع.

وإذا كان على صواب في نهاية الأمر؟ إذا كانت السعادة تكمن في الزواج؟

إذا صح ذلك يكون ريجيه قد ترك السعادة تفلت منه. لقد كانت في متناوله... ولم يكن عليه إلا التغلب على الأعراف. ولكنه فشل حتى في ذلك. هو الذي كان في باريس يطلق السخريات ويهزأ بالمجتمع لم تواته الشجاعة ليتملص منه. ربحا ترك السعادة تفلت... أن تكون له زوجة، وكثيراً من الحنان، وطفلا صغيراً يلعب معه. أن يربى الدجاج ويكون غيوراً. السعادة...

من يدري...

اتجه باولو ريچيه نحو السيارة وهو يبتسم.

والبهجة؟ من يعرف ؟ ربما تكمن في الحزن...

وفي السيارة أخذ يتابع أفكاره وهو شبه مستلق.

بعد ذلك أراد أن ينتحر. لقد قرب المسدس من أذنه في عصر أحد الأيام المائمة. عصر خلق من أجل الانتحار. ولكنه فقد شجاعته. كان يخاف من الموت بشكل لا يصدق... لماذا؟ لم يكن قد فهم بعد... لم تكن الغيبيات تخيفه. لم يكن يعتقد إلا في حياة الجسد... لماذا لم ينتحر؟...

كانت السيارة تتابع طريقها فوق الطريق المبلول. وكان بعض الصبية يلعبون كرة القدم، على الرغم من المطر. كانت به رغبة أن يطلب من السائق أن يدوس هؤلاء الصبية. أن يقتلهم جميعا. كان يفكر في ذلك وهو يشعر بالرأفة الانسانية. اإن ذلك سوف يجنبهم المعاناة. ولكن ما من أحد يريد أن يفارق الحياة... فكل

الناس يتشبئون بها بشراسة. حتى أولئك المسحوقون مثله. لم يكن لهم أى أمل (أملنا اليومى!) في بلوغ فتات السعادة هذه...

كان متعلقاً بالحياة. لم يرد أن يفارقها. اهتز المسلس في يده في عصر ذلك اليوم الضبابي، عصر يوم المنتحرين...

وفكر في القطار الكبير الذي ذهب فيه صديقه ريكاردو، بعيداً...

_ إننا فرسان السعادة. لقد حاولنا جميعاً خوض المغامرة. وفشلت أنا.

وكان خوسيه لوبيز خاسراً دوماً. أما ريكاردو فبدلاً من أن يواصل مشاطرتنا مأساتنا، رأى أن يحاول العثور على معنى للحياة...

القلق... الحاجة الى هدف. لماذا؟ لماذا هذا الشك؟ ولماذا عدم الرضا ذاك؟

_الأدب...

كان صوت روث يرن في أذنيه عذباً.

_سأكون سعيداً (الأمل في صوت ريكاردو)

- أتمنى لك السعادة... (الوهم في صوته).

- المسكين! وعندما يشبع؟ وعندما يشعر أن بهجة كل يوم وأحزان كل يوم لم تعد تكفيه؟ ستكون مأساة رهيبة. ماذا ستكون نهاية ريكاردو؟ إنه طيب جداً، مخلص جداً... نهاية حزينة...

كان صبى قذر، رث الملابس ينادى على الجرائد. وكانت الشمس تخترق السحب التى تملأ السماء وتتفضل بالظهور. فى ذلك الصباح، كانت السماء البرازيلية تحاول أن تقلد سماء لندن. ولكنها كانت كممثل فاشل فبدت رمادية.

نادى باولو ريجيه الصبى بائع الجرائد، واشترى منه جريدة. وبدأ يقرأ ليبعد الأفكار التي جعلته مكتئباً.

لقد اشترى بالمصادفة جريدة الاستادو دا باهيا كانت المقالة الأساسية تحلل الوضع السياسي. كانت تتحدث عن الوطن الحبيب، وعن إعادة إصلاح البلاد وإنمائها، وعن العزة. قرأ باولو ريجيه المقالة كلها ووجد في نهايتها توقيعاً باسم الجوميز.

جوميز يكتب الآن.. من كان يتصور ذلك؟... ولكن الدنيا تدور... جوميز... إنه أبضاً لن يصل إلى السعادة أبداً. لقد صور له ذكاؤه أن المال سيعوضه عن عدم الرضا. لم يدرك أن المال شديد الوطأة أحياناً.. إنه هو باولو ريجيه الغنى جداً الذي يقول ذلك... فالمال لا فائدة له إلا في إشباع الغيرائز... والغريزة (التي لايستطيع ريجيه أن ينكرها) ليست كل شيء في الحياة. كانت السيارة تجول في المدينة. أمر باولو السائق بأن يتوقف أمام إحدى الحانات. لم يجد خوسيه لوبيز. فتابع طريقه. وخوسيه لوبيز؟ عندما تعرف به، أعتقد أنه قابل نموذجاً للإنسان فتابع طريقه. وبعد ذلك، يا للفرق! إنسان ينوء بالمشاكل، تعس إلى أقصى درجة... للطمئن. وبعد ذلك، يا للفرق! إنسانا عمزقا، واحداً من أبطال تلك المآسى العبثية. والآن وقد أصبح لا يعتقد في شيء، أخذ يقضى وقته في الشرب... إن أصدقاءه والأن وقد أصبح لا يعتقد في شيء، أخذ يقضى وقته في الشرب... إن أصدقاءه الوحيدين أصدقاؤه البرازيليون. أما أصدقاؤه الفرنسيون فقد نسيهم بالفعل...

عامان في البرازيل... والنتيجة، ماذا أفاد من عودته إلى الوطن؟ انهارت كل مشروعاته. لم ينخرط في السياسة، ولم يمارس المحاماة. والشهور التي أمضاها في الصحافة لم تحقق له اسماً. تخلى فقط عن شكه الذي جاء به من فرنسا، وأصبح قلقاً... وفوق ذلك، لم يجد نفسه وسط شعبه الذي كان يزداد سخطاً كل يوم. تلفّت حوله فرأى في المرآة لافتة تحمل إعلاناً بحروف حمراء كبيرة:

_ آوجستو، هيا لنرى ذلك الشيء واقترب السائق بالسيارة، وقرأ ريجيه:

اليوم _ اجتماع كبير _ اليوم في قاعة الاحتفالات

يتحدث النقيب كارلوس فريياس عن الحكومة الحالية ويتتقدها. خطب لبعض الشخصيات تطالب بعودة البلاد إلى النظام الدستوري.

دهش باولو ريچيه:

_ ياله من شعب! يالأمس قام بثورة، وبعد بضعة شهور يريد أن يحارب هذه الثورة! ياله من كرنفال! وهذا النقيب! عندما عدت، كان يشيد بالسياسيين الليبراليين باسم قحاب باهيا. واليوم، يهاجم الثوار. إنه جنون إلقاء الخطب... بلاد الكرنفال...

وتابعت السيارة طريقها على الأسفلت المبلول.

* * *

كان جيرونيمو سواريس قايعاً في وسط السرير. أرادت «كونشيساو» بود أن تعرف ما به.

ـ لا شيء، ياصغيرتي، لا شيء.

اقتربت منه وقبلته في جبينه.

- أغاضب منى، ياحبيبي الجميل؟

_ لا.. لكن اتركيني في حالى.

ظلت تنظر إليه، والسؤال معلق في عينيها وعلى شفتيها.

وظل جيرونيمو في وسط السرير صامتاً. يحدث ذلك في كل مرة يذهب فيها إلى تيسيانو. وكان بيدرو الذي يشعر أن جيرونيمو يبتعد عنه بمرور الوقت، يسخر من كل المثل في هذا العالم والعالم الآخر.

- لأن الحب، في الحقيقة، بلاهة، أليس كذلك ياجيرونيمو؟ أن نهوى من لا يستطيع أن يمنحنا شيئاً سوى الجنس... والجنس يباع في الشارع بأبخس الأثمان. إن الحب بلاهة شعراء رومانسيين محرومين. بلاهة ليس فيها من الأصالة شيء. لا ينبغي أن نتعلق إلا بما يتسم بالأصالة، أن نحب إمرأة هندية والتي قبل أن تمنحك نفسها تتمدد فوق سكاكين حادة، أو نحيا مع غجرية تلف بنا العالم دون وطن ودون إله... إنني أعشق الغجر لأنني غجري في الثقافة. لكن أن تحب امرأة عادية، تشبه كل النساء الموجودات منذ الأزل، جميلة لا أكثر، تقوم بحساب الحب ولا تمارسه إلا بشهادة مقدسة من الكنيسة، امرأة بلا عيوب أو نقائص، فهذه تفاهة. الرجال العاديون فقط هم من يحبون نساء مثل أولئك...

أيده جيرونيمو وقد احمر خجلاً:

ــ نعم...

.. وأن تؤمن... لا يزال هناك رجال أذكياء يؤمنون. أن تؤمن ... أن تؤمن بأن هناك إلها، مخلوق أسمى يقود خطانا ويحمينا...لا يزال هناك من يؤمنون...

ـ نعم هناك...

- اسمع ياجيرونيمو. يقولون إن الله خلق الإنسان. أما أنا فأعتقد أن الإنسان هو الذي خلق الله. على أي حال، سواء خلق الله الإنسان أم خلق الإنسان الله فالمسألة لا تليق بإنسان ذكي.

ـ والمسيح ياييدرو تيسانو؟

_ إنه شاعر. ساخر. متشكك. رجل مختلف عن عصره. لقد بشر المسيح بالمحبة لأنهم في ذلك المهد كانوا يقدسون القسوة. كان متذوقاً للجمال. لقد أحب الجمال أكثر من أي شيء آخر. لقد قام بسخريات رائعة في ميدان عام على الملاً. مثال ذلك المرأة الزانية. لقد غفر لها لأن المرأة كانت جميلة وأن امرأة مثلها لها الحق في أن تفعل كل شيء. لقد استطاع المسيح أن يقهر الأعراف. كان رجلاً غير عادى. لكته إله تافه جداً..

ـ کيف؟

.. إله لم يأت أبداً بمعجزات كبيرة! اكتفى بأن يضاعف الخبز، وأن يشفى العميان. لم يزحزح أبداً الجبال، ولم ينزل أبداً من السماء ناراً على الأرض، ولم يوقف الشمس. لقد كان المسيح دائماً رغماً عنه مشعوذاً سيئاً.

_ومسيح المحبة؟

- إن المسيح كإنسان كان دائماً متسقاً. كان يبشر بالعفو لأن الانتقام كان القانون السائد في ذلك الوقت. وكان يبشر بالعفة لأن الفسق كان منتشراً في ذلك العبهد. لقد كان من الخارج، على الأقل، طاهراً على الرغم من عناد المجدلية وغيرها من النساء...

ـ ومن الداخل؟

من يدرى! من المحتمل أن المسيح كان محافظاً على طهارته... على أى حال... إن الخطيئة بين أربعة جدران ليست خطيئة... هذا هو قانون العالم...

- والحب والإيمان بطريقة رومانسية بين أربعة جدران؟
 - إن الغباء هو دائماً غباء أينما كان.

أطاعت وهي تحبس دموعها، أنزلت الصورة لتطلب منها الغفران. كان المصباح الكهربي المتلألا ينشر الضوء في أرجاء الغرفة.

- اطفتي هذا الضوء ياكونشيساو!

أطفأت الضوء.

- حتى بين أربعة جدران فالحب غباء... لامست ساق كونشيساو العارية ساقه. وأطبقت شفتاها المكتنزتان على شفتيه، وأخذ التفكير يتطفىء رويداً رويداً. ساق تلامس ساقاً. وشفتان تطبق على شفتين. أخذت غريزة الجسد تمحو العقل. كانت القبلة طويلة عذبة يمكن سماعها من خارج جدران الغرقة الأربعة...



استيقظت صورة قماريا ديه لورديس؟ التي كانت راقدة في عقله. من جراء الخبر الذي أعلمته به هيلينا. فأخذ يتأمل تصاريف القدر. إن هذا المعلم الشاب الذي أمضى حياته يبشر بالأخلاق ويعلم احترام المجتمع كانت لليه الشجاعة لأن يحطم الأعراف. أما هو، باولو ريجيه، الساخر، المتناقض، الذي يسخر من كل شئ يمت للأعراف بصلة، فقد استسلم للمجتمع.

_ ولكن امتأكدة أنت من أن لوردينيا سوف تتزوج؟

_ بلى... سوف تتزوج من مدرس فى المدينة التى تعمل فيها دونا بومبينيا بالتدريس. إن له اسماً معقداً. إن لم أخطئ فغريمك يدعى سيبستيانو هيبوليتو.

ـ غريمي... غريمي...

أمسك رأسه بيديه. وكانت هيلينا تنتظره في أحسن ثوب لديها.

_ لقد حان موعد السينما. ياباولو!

- اذهبي أنت، سأنتظرك.

- هذا فقط إذا كانت چورچينا نريد الذهاب معي.

وافقت چورچينا التي ارتدت ثوبها على صجل، وخرجتا متأنقتين توزعان الابتسامات على الرجال المصطفين على الرصيف.

مرر باولو ريجيه أصابعه في شعره بحركة تخصه وحده. كان لايريد أن يفكر. أبعد رأسه عن يديه ونهض. مشى إلى النافذة. حاول أن يتسلى بحركة الشارع. كانت عربة القسمامة تجسع القاذورات. إن حياته (لم يرد أن يفكر ولكن الفكرة عائدته) كانت قذرة جداً. أي عامل نظافة ذلك الذي سينظفها؟ أيهم؟

مرت سيارة ارتسم فيها شبح هزيل. هزيل مثلها. وربما أسمر مثلها. جميلة للغاية. ماريا ديه لورديس... عيناها الواسعتان غائمتان. أى حزن ذلك الذى بهاتين العينين الواسعتين... إن هاتين العينين لم تكذبانه قط. كانتا تعترفان له دوماً بأن ماريا ديه لورديس تعيش فى ألم كبير... لو كانت هنا، فى هذه اللخطة، لزالت كل آلامه وأحزانه. ولكانت قد داعبته، ووضعت يديها الرقيقتين فى شعره المنكوش فيطمئن قلبه. طيبة للغاية «ماريا ديه لورديس»...

وهو باولو ريجيه الذى يعتقد أنه متحرر ومتحضر إلى أبعد مدى ترك السعادة تفلت لأنه لم تكن لديه الشجاعة على الوقوف فى وجه الأعراف. لقد كان ميراث الأعراف رامنخاً فى دمه...

السعادة فى أن يتزوج، ويكون له أطفال صغار، ويعيش بطريقة برجوازية... ولكن هل كانت تحبه حقاً؟ وكيف سنتزوج من آخر؟ من الطبيعى أنها الآن تحتقر باولو ريجيه. لقد أظهر أنه جبان. تافه وضيع. أما الآخر، المدرس، فقد ظهر كبطل. اسيبستيانو هيبوليتوا... اسم شاعر.. لابد أنه شاب نحيف، ذو شعر طويل، يكتب أشعاراً غنائية، وفى أعماقه رب أسرة طيب.

_ إن السعادة لا ينالها إلا التافهون والمغفلون.

ورنت في أذنيه ضحكة بيدرو تبسيانو الشريرة الحادة.

- كل ذلك عبارة عن أدب... أدب... (حلاوة صوت روث)

ترك باولو ريحيه ذراعيه تسقطان بجانبه في حركة تنم عن الإحباط.

- آه، الحياة.

أخذ يمشى بخطوات بطيئة في الغرفة. أخذ قيعته واتجه نحو الباب.

- أتذهب الآن يا دكتور باولو؟

- أنت منا يا البيهه؟

ـ أنا هنا لأن هيلينا لا تصحبنى إلى أى مكان. ومع ذلك لقد أصبحت شابة. كانت تنفخ صدرها لتظهر ثدييها الصغيرين تحت الفستان. ابتسم باولو ريچيه باشتهاء.

_ تعالى هنا يابيبيه.

أجلسها على ركبتيه، وأخذ يتحسس جسدها ببديه. لاتزال طفلة ولكنها خليعة للغاية. واتجه تفكيره نحو ماريا ديه لورديس. فهى وإن كانت لم تعد عذراء لاتزال طاهرة. ترك ببيه فجأة كمن يحاول أن يهرب من شىء، وخرج مسرعاً إلى الشوارع ذات الأرصفة السيئة.

亲法系

۔ نادی قمار ؟

ـ نعم وماذا هناك؟ نادى قمار.

أسقط في يد باولو ريچيه. وكان خوسيه لوبير يبتسم من هيئته المرتابة.

ــ أصبحت مديراً لنادى قمار لأن ذلك يعود بالربح الوفير. لا أفعل شيئاً سوى بيع وفيشات، القمار وشرب القهوة مع الزبائن.

- _ إنك مجنون باخوسيه...
 - ــ لماذا ياباولو؟
- _ وثقافتك وطموحك، كل ذلك؟
- _ هل قلت إن لى طموحاً! إننى لا أطمح إلى شىء. وليست لى ميـول أدبية. إننى اعتـقد باستحالة الوصول إلى السعادة. وفـوق كل ذلك، لابد أن أدفع أجرة البتسيون...
 - ــ إنك...
- إسمع يا باولو. لقد نكصتُ عن كل شيء. لقد اقتنعت تماماً بما يقوله بيدروتيسيانو فالرجال المميزون. الرجال المختلفون لاغاية لهم. يحيون من أجل الحياة... وهذا ما أفعله.
 - _وعلم الرضا؟ والشك؟
 - ـ موقف فكرى...
 - _ إذن أنت تعتقد، مثل زوجة ريكاردو، أن كل ذلك أدب؟
 - _ بالضبط،
 - ـ جميل!
- ـ اسمع يا باولو، إن النهاية هي الموت كما يؤكد تيسيانو. وفي الموت وحده تكمن السعادة. لأن الموت وحده يخلصنا من آلام هذا العالم.

- ـ ولم تنتحر...
- ـ لا تدهش لذلك. فسأنا عاطقى للغساية. لماذا أسبب لكم هذا الألم وأنتم تحبونني كثيراً، أنت. وتيسيانو وريكاردو وچيرونيمو؟
 - _ معك حق. أنا الذي لم أنتحر الأنني لا أملك الشجاعة.
 - ـ من أجل ذلك فقط؟
- خصوصاً من أجل ذلك... صحيح أننى فكرت فى أمى وفيكم... لكن ألمى كان كيراً... لقد كنت جياناً...
 - ـ دعك يا باولو من هذه اليلاهة...
 - _ أتعرف أنها سوف تنزوج؟
 - .. خطيبتك السابقة؟
 - ـ نعم. ماريا ديه لورديس.
- ر إن ذلك لا يدهشني كشيراً. فهاله هي الحياة في نهاية الأمر. لقد شعرت بحاجتها إلى زوج ووجدته، ماذا هناك؟ ولم تكن أنت، بل كان شخصاً آخر.
 - _ إنني بائس. لقد تركت السعادة تفلت مني...
- من يعرف ما إذا كنت ستصبح أكثر تعاسة؟ إن الحب يا باولو لا يجلب السعادة... ولاشىء في الحياة يفعل...
 - _ ولاحتى الفلسفة، باخوسيه؟
- حتى الفلسفة كففت عن الاعتقاد بها. لقد كنت أعتقد أن الفلسفة تمنحنا السكينة على الأقل، وأنها تحل مشاكلنا. كنت مخطئاً وزاد إحباطي إحباطاً.

ـ إن التجربة تكتمل بالإحباط...

_ لقد خضت تجربة كبيرة...

ودعه خوسيه لوبيز. كان الوقت متأخراً، وكان عليه أن ينهب إلى عمله فى نادى القمار. تابعه باولو ربحيه بعينيه فى حزن. كان نحيفاً، خداه غائران، كان يسعل كثيراً خلال المحادثة... أصبحوا لا يتلاقون إلا نادراً. وأصبح خوسيه لوبيز لايظهر. كان يخفى بؤسه عن الجميع... كان ربحيه يتذكره: كان أكثرهم اعترافاً، وأكثرهم أملاً. كان يأمل فى السعادة والصفاء. والآن، أصبح محطماً، يسكر فى الحانات، ويدير نادياً للقمار، يتربص به داء السل. لقد كان رمزاً لفثلهم جميعاً...

* * *

فشلواكلهم ما عدا چيرونيمو سواريس. فهو وإن لم يتوصل إلى السعادة الكاملة فإنه يمشى إليها بخطى عملاقة. كان قد تخلص رويداً رويداً من تأثير بيدرو تيسيانو، وقرر أن يعيش بصفة نهائية مع كونشيساو. استأجر منزلاً صغيراً وأثشه بذوق. انتقللا إلى المنزل الجمديد ذات يوم سبت بعد الظهر. وقامت كونشيساو وهى فرحة، وبهجة طفولية تتراقص على وجهها، بترتيب المسكن. كانت تأمل دائماً في أن تمتلك منزلاً. عندما كانت ما تزال فتاة في بيت والديها، كأن الزواج يبدو لها متهى الأمال. بعد ذلك، ضاعت وأصبحت عاهرة ذليلة. ولكنها لم تنس أبداً حلمها. بيت صغير... ورجل تمنحه نفسها كلية. تعطيه الحب ويعطيها السعادة.

كم من مرة كانت زميلاتها في العمل، العاهرات الوقحات المرضى بالزهري يتهكمن على آمالها!

- عندما نسقط في هذه الحياة يا ابنتي، لا نخرج منها أبداً. وأقبصي ما نحصل

عليه قواد يحمينا... لكن ذلك هو الأسوأ. ولا سبيل لأن تمنحى جسدك لرجل آخر، لأن القواد سيلازمك كظلك. وإذا ركبت رأسك ستتلقين الضربات وتعودين إلى الشارع.

كانت تشك في أن تتخذ صديقاً.

_ إن جسد الواحدة منا اعتاد أن يكون للجميع. لايرضى بأن يكون لواحد... ولكن كونشيساو خلقت لتكون ربة أسرة. لقد خلقت لتمنح نفسها لواحد، واحد فحسب. ولذلك عندما دخل چيرونيمو العاطفى المتعطش للحب في حياتها، أيقنت أن أحلامها قد تحققت. أحبته بعمق، وكان هو، بالمقابل، طيباً للغاية.

كانت زميلاتها يقلن:

_ قديس!

ومع ذلك. كانت هناك أيام يتكدر فيها مزاجه. وكان يغلظ لها القول، ويجعلها تتألم. كانت تبكى كثيراً عندما يصبح شديد الوطأة. ولكن مثل هذه الأيام أصبحت نادرة مؤخراً، وكانت سعيدة بأنها في سبيل السيطرة عليه بحبها. لم تكن تعرف أن إضمحلال تأثير تيسيانو عليه هو الذي حقق هذه المعجزة. والحقيقة، أن چيرونيمو كان لايرى تيسيانو إلا قليلاً. كان يخشى أن يقع من جديد في القبضة الحديدية لسخريات هذا المدمر.

ـ إن الحب بلاهة...

ولكن چيرونيـمو، المتعطش للحب. كان يسفضل أن يكون أبله على أن يكون مائساً. نقابلوا عند بيدرو تيسيانو. كانت حالة صديقهم قد ساءت فجأة. تجمعوا بجانب فراشه وكان باولو ريجيه حزيناً للغاية، متأثراً أشد التأثر. وقد استولى عليه خوف مرعب من أن يموت تيسيانو. فتيسيانو كان يساعده بسخرياته وشكه على تحمل الحياة. وكان چيرونيمو في هيئة المجدلية التائبة يتحدث ويتذكر تهكم ييدرو. وبالقرب من الفراش المتواضع حيث يريح المريض جلده وعظامه. كان خوسيه لوبيز بمسكاً بملعقة دواء كبيرة. كان بيدرو لايزال في حالة صحو يحاول أن يحدثهم.

- _ إنكم طيبون! لا أعرف كيف أرد لكم كل هذه الطيبة...
 - ـ لاتقل ذلك باتيسيانو، أرجوك...
 - ـ إنه واجب علينا. إننا مدينون لك بالكثير...
- وأخذ چيرونيمو يعدد المحاسن التي أغدقها عليهم بيدروتيسيانو.

قال خوسيه لوبيز لبيدرو وهو يتاوله الدواء:

- ـ هو، غير مدين لك بشيء يا تيسيانو. وإذا واصلت التأثير على هذا الولد ستجعل منه يائساً...
- ولكنه، على الأقل، سيكون مختلفاً عن جميع الرجال. وهذا ما أردت أن أفعله. رجل مختلف جدير بالانتماء إلينا.
 - ـ ليس بالنسبة له. إنه ولد طيب...
 - _ طيب جداً. كريم النفس...
 - _لدرجة أننا نغفر له صغر عقله...
 - ـ المكين ا

سأل بيدرو تيسيانو عن ريكاردو براس. ألم يتلقوا منه خطاباً؟

أجاب باولو:

- كلا. ففي سعادته البرجوازية لا يكتب لنا.

وعقب خوسيه لوبيز:

_ إطلاقاً... لا يكتب لنا لأنه تعس. إن ريكاردو متعجرف جداً. لم تكف عن تكرار أن السعادة ليست هى الحب الذى سوف يشبع منه. وقد حدث. ربما فى هذه الساصة يعانى بقسوة. ولكن الغطرسة تمنعه من أن يصارح أصدقاءه... إن ريكاردو لن يعترف أبداً بأنه أخطأ.

أكد تيسيانو بصوت واه:

_ بالضبط.

ـ مسكين ريكاردو...

_ وأنت يا باولو، لقد أصبحت عاطفياً منذ مأساتك الغرامية...

- فعلاً. واليوم لم يبق لى غيركم يا أصدقائى. وإذا فقدتكم سأكون وحيداً فى الحياة ولا أعرف ماذا سيحدث. والحقيقة أننى بدأت فعلاً أفقدكم. خوسيه وجيرونيمو لم أعد أراهما، وتيسيانو مريض، وريكاردو فى «بياوى».

_ لقد أردت أن أعفيكم من منظرى البائس...

_ إية عزة نفس يا خوسيه!

_ ويحير ونيمو يدارى غبطته. فهكذا... يجب أن يشقى المرء أو ينعم وحيداً.

ـ لم أعرفك يا خوسيه.

- _ إننى اليوم مخلص يا باولو...
 - _ تناقضات، الآن؟
 - إكراماً لتيسيانو.

! aĪ_

دقت ساعة الحائط، وطلب تيسيانو الدواء:

- أنا الذي لم أطع أحداً قط، أراني مضطراً في آخر حياتي لأن أطبع ساعة...

* * *

- أريد أن أقلمك لحبيبتي.

- نعم يا چيرونيمو. لابد أن تتحرر من تيسيانو. إن له تأثيراً عليك. وهو يعتقد أنه يفعل كل ذلك لمصلحتك. وبما أنه أخطأ... يجب أن تـطمح إلى السعادة فوق كل شيء. إن تيسيانو الذي يعشق عدم الرضا والألم، كان يريد أن يصنع منك تيسيانو جديدا. كنت ستصبح بائساً إلى الأبد. إن تيسيانو شخص استئنائي، لقد جاء من زمن آخر، إنه لا يشعر بما نشعر به نحن أبناء اليوم من ضرورة البحث عن السعادة وغياية الوجود. إنه يحيا لأنه وليد. لايريد أن يحقق ذاته، ولايريد أن يتصر.

- بل يمكن القول إنه لم يرد...
- هذا حقيقى. إنه يموت. تيسيانو العظيم... قليلون من هم مثله في هذا القرن... ومع ذلك يموتون في بؤس.
 - لقد ولد في البرازيل...

ـ فى بلد الكرنفال هذا، الأقنعة العادية وحدها التى تسود. لقد كان أسمى منا جميعاً. لقد استطاع أن يتخلب على عدم الرضا. لم يحاول أن يحل مشكلة وجوده. بل وضع نفسه فوق الحياة كمتفرج.

_ولكننا نحن...

. يجب علينا أن نحيا. ونحاول ألا نفشل. نسعى إلى السعادة. وحتى لا تعيش مأساتي ومأساة خوسيه لوبيز... عليك أن تكون سعيداً...

ـ سأكون سعيداً ياباولو.



أخذ السيارة وانطلق بسرعة. لقد هزته هذه المكالمة التليفونية. بيدرو تيسيانو يحتضر. يحيا اللحظات الأخيرة من حياة مثيرة. اتصل ابنه يباولو ريجيه. كانت ساعة الحائط بصونها الأجش تعلن الحادية عشرة مساء. هبط باولو ريجيه ليوقظ السائق. دفع باب الغرفة. وفي السرير الضيق كان السائق والحادمة مستغرقين في نوم يرئ لأولئك الذين أشبعوا غرائزهم. أيقظهما. أخذا يعتذران في اضطراب. غطت الخادمة التي اعتراها الخبل وجهها بدلاً من أن تغطى الأعضاء الأخرى من جسدها.

.. هيا يا آوجستو، لا أهمية لذلك. يمكنكما أن تناما سوياً وقتما تشاءان. الأمر سيان بالنسبة لى. لكن لابد أن أذهب فوراً. اخرج السيارة. كان المطر ينهمر بغزارة. أراد أن يعبر بجملة فخرجت الكلمات ساذجة:

_ كأن السماء تبكى على رحيل تيسيانو _ إن باهيا وكتاب البرازيل الضعفاء ميفرحون وقد يقيمون حفلاً...

توقفت السيارة أمام باب چيرونيمو سواريس. طرق الباب. وفي الداخل لم يكن إلا الصمت. طرق الباب ثانية. لا أحد يجيب. وفي النهاية خرج عن شعوره وأخذ يضرب الباب بقبضته متعجلاً أن يصل إلى بيت صديقه الذي يحتضر. ظهر چيرونيمو في النافذة.

- _ من هناك؟
- ـ أنا، باولو ريچيه.
- ـ تيسيانو يموت. ميا بسرعة.

لم يستفرق چيرونيمو وقمتاً في ارتداء البنطلون والجاكتة. وانطلقت السيارة من جديد باتجاه البنسيون حيث يسكن خوسيه لوبيز.

أخذا يهزان الرتاج الضخم كثيراً. ظهرت صاحبة البنسيون. امرأة عجوز، قصيرة. سمينة ـ وهي تضع يديها في وسطها:

- _ماذا تريدان؟
- ـ نريد أن نتحدث إلى السنيور خوسيه لوبيز.
- ـ لم يعـد بعـد. ولا يجرؤ أن يظهر قبل الفـجر. اللص مـدين لى بإيجار شهرين. يأتى آخر الليل ويهرب في الصباح. لا أعرف ماذا يفعل ... لص!
 - ـ كفى يا سنيورة. مدين لك بكم خوسيه لوييز؟
 - كم... إيجار الغرفة شهرين في مائتي ألف رايس.
 - _ سأسددها.

وسحب ريچيه النقود من حافظته. وبدا الرضا على المرأة:

- اعذرني. إنك تفهم...
 - وأحصت النقود بأمانة:
- ـ ولكن هناك زيادة مائتي ألف رايس.

- إنها لإيجار شهر مقدماً. لكن لا تقولي شيئاً لخوسيه. والآن، أين يمكنتي أن أجده؟
 - لا أعرف ياسنبور. إنه لا يقول أبدأ أين يذهب...
 - ظلا متحبرين. أين يجدان خوسيه لوبيز؟
 - ـ ربما يكون الآن عند تيسيانو...
- كلا. لقد أخبرنى ابن تيسيانو أنه لم يكن هناك، وأنه لا يعرف أين بجله.
 - ولكنه يعمل في ناد للقمار. أتعرف أين يا جيرونيمو؟

وكان چيرونيمو يعرف النادى. وانطلقت السيارة. صعدا سلالم طويلة، وفي الطابق الثالث سمعا صيحات السكارى.

_ لأبد أنه هنا.

سألا البواب الذى أجاب بأن خوسيه لوبيز لم يظهر منذ أيام، وأنه يأتى من حين لآخر إلى النادى لبشرب فقط... وأخذ البواب يتفلسف فى لهجة الخلاسيين البرازيليين:

ـ إنه شخص غريب الأطوار، هذا السيد خوسيه لوبيز. دائماً يقرأ ويشرب. إن حكايات كثيرة بدأت هكذا. لقد مربى كثير منها...

لم يكن باولو وچيرونيمو ينصتان له. كانا قد ابتعدا هابطين السلم.

ردعك من خوميه الآن. هيا بنا.

ـ هيا بنا.

انطلقت السيارة بالرجلين في الشوارع المليئة بالخفر. كانا صامتين في حزن ثقيل.

**

كسان بيدرو تيسيسانو يحتضر وهو مسمالك زمام نفسه بالرغم من بلوغه السبعين.

كان جميلاً في اللمحظات الأخيرة من حياته وقد تركت الحمى آثارها على جلده وعظامه. ومع ذلك. كان وجهه يشع بجمال غريب.

دخل باولو ريجيه منكس الرأس، ضاغطاً شفتيه حتى لايبكى. لقد أحب هذا المدمر الرائع الذي عرف كيف يحيا حياة المعارضة.

أخذ چيرونيمو سواريس يعانق بيدرو...

_ كيف الحال إذن؟

أجاب الحنضر بصوت رفيع:

ـ جید. کما تری.

في الغرفة، كان المصباح الكهربي الصغير يبث من خلال «الأباچورة عضوءاً شاحباً. تلفت تيسيانو حوله:

_وخوسيه؟

.. لم نستطع العشور عليه. ولكنه لن يتأخر. ومع ذلك لايزال أمامنا مستسع من الوقت لنثر ثر... سنين...

_ دعك من ذلك يا چيرونيمو. أتريد أن تعزيني؟ أعرف أنني سوف أموت.

ولكنى لا أخماف الموت. لقد عشت كثيراً. عرفت الحيماة والرجال _ وأضاف مازحاً:

ـ والنساء أيضاً.

كان ابنه وابنته الصغيرة يبكيان. وكان باولو ريجيه صامتاً والنحيب يحتبس في حلقه فبدا كعبيط.

كان بيلروتيسيانو يبتسم للموت. كان رائعاً حتى آخر لحظة. كان يموت بنفس الروعة التي عاش بها.

عند رأس السرير. كان باولو ريجيه يتساءل فزعاً كما لو كان هو المحتضر وإذا كان هناك جنة ونار؟ سيدان بيدروتيسيانو. وربما يعانى. وأثارته هذه الفكرة. أنستدع قساً؟

ومرر يده على شعره وجبهته الملتهبة، واقترب أكثر من تيسيانو، وهمس في اذنه:

_ وإذا كانت هناك حياة أخرى يا بيدرو؟

ــ أتريد أن نستدعى قساً ياريجيه؟ لا تفعل ذلك. لستُ مؤمناً. إننى منمسك بما أعرفه وسوف أموت غير مؤمن.

وبذل جهداً لكي يبتسم، وواصل حديثه بصوت واهن:

_ إذا كانت هناك حياة أخرى، فإننى أفضل الجحيم.

وجاءت اللحظة الأخيرة. امتقع وجه بيدرو تيسبانو في نوبة ألم.

_إنني أموت! إنني أموت!

- قفز باولو.
- _ أجبني يا تيسيانو. ما هو حل المشكلة؟ لأي هدف نحيا؟
- نحيا من أجل الحياة. السعادة هي كل مالا نبلغه، إن ما نرغبه.
 - _ والسر في أن نكون مطمئنين؟
- ألا نرغب فى شئ. وأن نقلع عن الرغبة تماماً. أن نحيا لكى نموت... سقط منهكاً. بكى چيرونيمو كطفل. وكان ابن تيسيانو قابعاً فى ركن يتأمل المشهد الأليم. رفع المحتضر رأسه بجهد يائس. تلفت حوله ملقياً نظرات الوداع. تمتم فى صوت سحيق، صوت ما وراء الموت:
 - يالها من نهاية حزينة لمأساتي الكبيرة!

وحاول مرة أخرى أن يبتسم. لكن الألم قاوم فهمه. أغمض عينيه. ومات بيدرو تيسيانو. عبائق ابنه جنته طويلاً. وأخذ چيرونيمو ينتحب. وبدأت ابنته الصغيرة تردد صلاة لا يحفظها باولو ريچيه، تطلب الخلاص لهذه الروح. كانت الطفلة تردد بصوت عال:

- قيا أبانا الذي في السماء.»

أراد باولو ريچيه أن يصلى معها. لقد مات بيدروتيسيانو ملحداً! خرج من الغرفة قبل أن ينفجر في النحيب، وبدأ يصلى بطريقة مضحكة مثل ابنة الميت...

* * *

وفى النهاية، وجلا خوسيله لوييز، عند الفجير، مخموراً في إحدى الحانات. هزه باولو:

ـ خوسیه ا خوسیه ا

ـ ما بك يا باولو؟

استعاد خوسيه لوبيز وعيه عندما نظر إلى هيئة صديقه المنهكة.

ـ لقد قضى بيدروتيسيانو نحبه.

_ماذا؟...

قعد خوسيه لوبيز. أخفى وجهه بيديه. وزالت سكرته.

ـ وأنا الذي لم أكن حاضراً...

ـ لقد بحثنا عنك، وكان من المستحيل أن نعثر عليك.

_ باللشقاء! يا للشقاء!

ـ الآن، ينتظرنا عمل كبير. علينا أن نقوم بعملية الدفن.

_ قعلاً.

ـ أنت يا خوسيه لوبيز الذي سنتكلم.

_ لا أحد غيرنا سيذهب إلى الدفن.

ولكن حدث عكس ما توقعوا. حضر الكثيرون عملية الدفن. لقد سرى الخبر بسرعة في المدينة.

علق باولو ريچيه:

_ إن الأدباء الضعفاء سوف يطيرون من الفرح. فهاهم قد تخلصوا من عدوهم الأول. وتذكر چيرونيمو أن بيدروتيسيانو كان يعتبر الأدب البرازيلى فرعاً من الأدب البرتغالى. وكان يعلن ذلك، الأمر الذي أثار غضب الأدباء الوطنيين. ولابد أنهم سعداء الآن. وربما من أجل التأكد من موت بيدروتيسيانو سنتابع جميع

الصحف وكل أدباء المدينة عصلية دفنه. ولكنهم سوف يندمون. كانت خطبة خوسيه لوبيز عنيفة فضحت كل الأغبياء الذين عارضوا بيدروتيسيانو في كل شئ الذين تناسوه دوماً، وهاهم الآن يحضرون دفنه من باب النفاق. إن بيلرو لايهمه حضورهم. لم يطلب منهم أن يحضروا ولن يشكرهم على ذلك. قوطعت الخطبة بنحيب البعض. وكان هو يسعل أحياناً، فكان الأدباء يعتقدون أنه لن يتأخر في اللحاق ببيدروتيسيانو.

ظلوا سوياً صلى مائدة إحدى الحانات إلى وقت متأخر من الليل، يسذكرون صديقهم الميت.

_ إن آخر عـ لاقة تربطني بالحياة قـد قطعت. فقدت كل شئ. والآن أفـقد من أصدقائي.

لم يرد الآخران على خوسيه لوبيز فقد كانا مستغرقين في صمت ثقيل.

- ريكاردو بعيد جداً.

تذكر چيرونيمو:

_ لابد أن نخطر ريكاردو.

وتعهد باولو ريجيه أن يكتب إلى الغائب.

_مسكين ريكاردو! سوف يحزن كثيراً...

ـ سوف نكدر سعادته...

كان «الفونوغراف»، في أحد الأركان، يبث أحد ألحان السامبا الشهيرة: «حقاً، إنها جميلة هذه الحياة»....

ــ إن الشخص الذى ألف هذه الأغنية مغفل كبيـر. فهذه الحياة شقاء... أخذوا يتذكرون آخر كلمات تيسيانو.

- _ كنت أقول دوماً: إنه كان يعيش مأساة كبيرة.
 - الإخلاص للحظة الأخيرة...
 - أو المزحة الأخيرة؟

- لقد توصلت اليوم، يا باولو ريجيه، إلى طمأنينة بيدروتيسيانو. لم أعد أرغب في شئ... سوف أحيا هكذا حتى ماتي...

لم يقل چيرونيسمو شيئاً لاعتقاده بأنه وسط هذين الرجلين التعسين سيكون كمن يرتكب جريمة محاولة بلوغ السعادة.

غادروا الحانة. وكان «الفونوغراف» ما يزال يغني هازئاً:

(حقاً، إنها جميلة هذه الحياة...)

- كلب جوميز هذاا
- _ اسمع... لقد أرانى ابن تيسيانو اليوم برقيات تعزية من اتحاد الصحافة ومن ر أكاديمية الآداب...
 - أنذال ! بمجرد أن يموت عدوهم يحتفلون به. لكن قبل ذلك كانوا يقاطعونه خوفاً منه...

وتوعد خوسيه لوبيز:

_ ولكنني سوف أكتب مقالات عن ذلك... سوف أسحقهم.

وانفضوا، كل إلى بيته.

كان القمر في السماء. لايشبه امرأة ذابلة. كان مجرد كوكب تابع للأرض.



كان اقترابه من السعادة التامة يتحقق بسرعة. لقد نسى مزاح صديقه ونصائحه وسخرياته. لقد ألقى عنه مشاكله كشئ لاطائل منه. لقد تخلص بسرعة من عدم رضاه، الذى لم يكن إلا موقفاً فكرياً. تحت تأثير تيسيانو. كان يتذكره كأسطورة، ككائن استثنائى يعذب الآخرين ويفرض وجوده عليهم. تيسيانو الذى كان يعذب ويلقى الشك فى نفسه ويسيطر عليه بقوة تبجحه وبكل صفاته الغريبة كملحد. وبدأ چيرونيمو سواريس يشعر بنفس الحماسة عندما يمر الجنود فى الشارع فخورين يتخنون بما يسمى النشيد الوطنى. وبدأ من جديد يتذوق الأشياء العادية فى الحياة. أقام علاقات مع جيرانه. وكان يتناقش فى السياسة مع السنيور قبريدو ريديس انطونيس دا انكارنا سانوه الذى كان مستغرقاً فى المطالبة بعودة البلاد إلى النظام الدمتورى. وكان يبتسم محيياً الجارة العجوز القصيرة التى تصنع الحلوى النظام الدمتورى. وكان يبتسم محيياً الجارة العجوز القصيرة التى تصنع الحلوى النظام الدمتورى. وكان يبتسم محيياً الجارة العجوز القصيرة التى تصنع الحلوى النظام الدمتورى. وكان يبتسم محيياً الجارة العجوز القصيرة التى تصنع الحلوى النظام الدمتورى. وكان يبتسم محيياً الجارة العجوز القصيرة التى كما كان فى السابق، قبل أن يعرف بيدرو تيسيانو.

كان يرتقى إلى السعادة. وفوق ذلك كانت لديه كونشيساو، المومس السابقة، المرقيقة للغاية، تملأ عليه حياته. كانت تحبه كما تحب النساء اللاتى يبعن أجسادهن لحشد من الرجال. إن هؤلاء النساء هن جوهر الحب، وذروة الرقة. كانت كدونشيساو تخمن رغباته. كانت تمنحه النعيم اليومى الذى ينعم به الرجال

المطمئنون، والذى يبحث عنه الآخرون كشيراً. فى المساء، كانت تضع رأس چيرونيمو على حجرها وتظل ساعات بأكملها تداعب شعره المجعد. وكانا يمكشان صامئين من فرط السعادة. لم تعد هناك أيام المزاج العكر. نفس الشئ دائما. نفس الطيبة. نفس الابتسامة التي تبوح بتخلصه من عدم الرضا.

كانت روث، زوجة ريكاردو، قد أصابت بقولها إن مسألة عدم الرضا هذه عبارة عن أدب...

واليوم، وإن كان يعطى الحق لروث! أدب كله... فإنه مع ذلك يشــعر أن شيئاً ينقصه.

إن سعادته كبيرة ولكن لا يمكن اعتبارها مطلقة. إنه ما يزال بتألم من شئ لا يعرف كنهه. وفي بعض الأحيان، صحيح أنها أحيان قليلة، كان ذلك الشئ يخطر بذهنه فكان يسبب له الاضطراب. إن شيئاً ينقصه...

وفى العمل حيث أصبح الآن يذهب كل يوم فى الموعد المحدد، كان يسترك قلمه ويستغرق فى التأمل. الحب، حصل عليه. يتقاضى مرتباً جيداً. المأكل جيد، والفراش مريح. ما الذى ينقصه إذن؟ أيكون شيطان عدم الرضا هو الذى أرهقه؟ أتكون سخويات وتناقضات بيدروتيسيانو هى الحقيقة؟

- لا. إن مسألة عدم الرضا والشك هذه تخص باولو وخوسيه لوييز. لاتخصني أنا. إنني برجوازي سعيد بلا ذرة من العقلانية...

- ولكن بحق الشيطان ما الذي ينقصني؟

أيقظه زميله في المكتب:

- هيه، أخى العزيز! أأنت في القمر؟

- ـ لا. إنني أفكر في أشياء...
 - _ تفكر؟ أأنت شاعر؟
 - ماذا ا أعوذ بالله...

وفى المساء أيضاً كان يتساءل. طالما أنه لم يصل إلى السعادة الكاملة فلن يجد الراحة قط. فالمرء ينتهى بأن يصبح تعساً باجتراره المشكلة. في ذلك الوقت لم يكن چيرونيمو سواريس يرغب في شئ أو يطمح إلى شئ. ورغبته في أن يصبح رئيساً للقسم لم تكن طموحاً حقيقياً.

* * 4

عَمدت الكونشيساوا بجمانبه راضية، فاتحة ساقيمها في سكينة من أشبع غرائزه. وسحب چيرونيمو الغطاء فوقه لينام. ولكن آفة المناجاة لم تفارقه، تك الآفة التي ورثها من معاشرة بيمدروتيسيانو. وقبل أن يستسلم للنموم كان قد استخرق في أفكاره.

إنه في نهاية الأمر لم يخن أصدقاءه. وتيسيانو نفسه يقول: إنه ليس هناك فضائل أو خطايا، والمسألة ببساطة تتحصر في كيف يرعى المرء فضائله كخطايا أو كيف يهبط بخطاياه إلى عداد الفضائل. لقد كانت فضائله هي دافعه إلى الرضا، ومع ذلك فقد حاول الآخرون جميعاً بلوغ السعادة وفشلوا، أما هو فقد فاز بها.

كان، في سلاجته، يعتقد أن المسألة مجرد حظ. فلم يتذكر أبداً عبارة تيسيانو: (إن الحمير والأغبياء هم وحدهم من يبلغون السعادة...)

والأسوأ من ذلك. كان هذا الشئ الذي ينقصه. إذا عثر عليه فسوف بعيش معيلاً بقية حياته. ماعساه يكون ذلك الشئ؟ - لاشئ، لاينقصني شئ. إنما ذلك من بقايا تأثير الأصدقاء.

وبدأ النوم يطبق على جفونه. تكور على نفسه وراح فى النعاس. رأى حلماً غريباً. استعاد فى هذا الحلم الليلة التى عاد فيها ساخطاً من عند تيسيانو وأرغم كونشيساو على أن تنتزع صورة القديس أنطوان من على الحائط، فوق السرير، وأنها بكت كثيراً...

نهض قافزاً. لقد وجد حلاً للمشكلة. فالشئ الذي ينقصه هو الإيمان، الدين، الله.

وأخذ سعيداً يهز كونشيساو:

ـ كونشيساو! استيقظى يا حبيبتى!

فتحت القتاة عينا مغشاة.

- ماذا هناك يا چيرونيمو؟

- أتعرفين أنه لابد من الذهاب غدا إلى القداس؟

_ ها؟

تململت وبحركة تدل على نفاد صبر (يوقظها من النوم ليزعجها) واستدارت إلى الجانب الآخر وواصلت نومها.

ـ ليس أمامي إلا أن أذهب وحدى...

رسم چيرونيمو سواريس إشارة الصليب وغطى رأسه بالملاءة ونام أول نوم هادئ في حياته...

كان الوكسلاء المتجولون الذين غامروا بالوصول حتى هذه المدينة الصغيرة في قلب ابياوي، قد أصدروا تصريحاً قاطعاً بأنها:

ـ مدينة صغيرة بلا حياة ولانشاط والناس هناك يعيشون في عزلة.

لقد كانوا في الحقيقة على صواب، فهذه المدينة نموذج لمدن شمال البرازيل،

تنقصها الحياة. التجارة الصغيرة في أيدى بعض العرب الماكرين، والصيدلية، التي لا تختلف عن أي صيدلية، في أي ضاحية برازيلية، هي المكان الوحيد للخطياء: الطبيب والمدرس والقاضى والمحامى والسيد «ليوكاديو» مدير مكتب البريد وكل وجهاء المنطقة. ومتجر الحرير والدكان الذي يعرض في واجهته لحم الضأن والدجاج، أيام السوق. والشارع الطويل الواسع حيث يوجد مبنى المحافظة وحيث يسكن الطبيب. وميدان المساحة حيث تصطف منازل الصفوة. الرجال البارزون وحدهم يسكنون هناك. هناك أيضاً بضعة شوارع صغيرة ضيقة بها قليل من المساكن وكثير من الخلق. وعلى تخوم المدينة، هناك ثلاثة منازل حيث تسكن قلة من المومسات. لاشئ جديداً على الإطلاق. السينما في أيام الخميس والسبت قلة من المومسات. لاشئ جديداً على الإطلاق. السينما في أيام الخميس والسبت والأحد، وفتيات يطرزن المانتيلا (ما يزال هناك فتيات يطرزن المانتيلا) جالسات أمام الأبواب. كل الناس يعرفون بعضهم البعض. والحديث عن المستقبل فن.

فن صعب تتفوق فيه دونا الفيليسمينا الوجة اليوكا النجار. مدينة حتى الصغار فيها لهم شخصيتهم. قلة من الصبيان وكثرة من الفتيات. رومانسية خالصة تعود إلى عام ١٨٣٠. قلة من الصبيان فقط من يعرفون النساء ذلك لأن القليل من بينهم قد بلغ توا الحادية والعشرين العمر الذي يسمح لهم فيه آباؤهم بأن يفقدوا براءتهم. هذه هي البرازيل في كامل طهارتها!

وأغنيات «الكوكوس» التى لايزالون يرقصون على أنغامها فى بيوت الأثرياء (ذهبت دونا اريزوليتا»، ابنة المحافظ، إلى العاصمة لتدرس موسيقى «الكوكوس» ولكنها وجدتها مثيرة للسخرية. كانت تعزف على البيانو موسيقى حديثة همجية، لذلك ثأر منها الناس واعتبروها مجنونة...» والقس بهيئته الأبوية يبارك كل

الناس، قس طيب أب لخمسة عشر من الأبناء أصبح بعضهم آباء. بدائية الدين وروعته، الدين المفعم بالخرافة تجعل منه ديناً أفريقياً أكثر منه لاتينياً. اللغط لايكف في الصيدلية كل يوم، من الثامنة حتى الظهر، ومن الواحدة حتى السادسة مساء. يلعبون الدومينو أمام بابها، يحيط بهم الفضوليون الذين يشجعون اللعبة الحلوة (كان «تيودورو» بطل لعبة الدومينو). والزيجات النادرة للشباب الذي لم يهاجر إلى سان باولو بحثاً عن الثروة والحظ.

قليل من الطرافة والجدة وكثير مما يثير اللهشة. مدينة صغيرة سعيدة حيث الفنيات لا يقرأن البيتيجريللي ولا «يعبثن في السينما حيث يفكرن في الزواج. في هذه المدينة يعتبر افلوريانو بوكشوتو» (۱) بطلاً معبوداً حيث يعتقد الناس أن المجلترا تخشى البرازيل اعندما تقع الحرب مع الأرجنتين...» ويترك الكابتن تيودورو الدومينو ويصف مآثر المستقبل). عندما لايصاب الشبان بالسيلان وتبلغ المومسات قدامسة لاتمس. وهناك أيضاً، وهو شئ لايصدق، هناك الحب في هذه المدينة. حب نقى بلا شهوات. (حيث يحب المرء دون أن تخامره الأفكار المنسة: المدينة مي الوسيلة الناجعة لمعرفة إذا ما كان المرء يحب حقاً، وفقاً لرأى شباب المنطقة...)

- ـ بركتك ياسيدي القس...
 - ـ ليباركك الله يا ولدى.

وفى وسط الشارع. يمد شاب فى حوالى الثامنة عشرة يده ليتلقى بكل احترام بركات ممثل السماء. شاعرية للذيذة مضحكة لمناطق البرازيل الداخلية. وفى قلب ذلك، أغلقت صحيفة القرنقل؟ بسبب انعدام الأخبار والمحررين... ولكن فى

⁽۱) سیاسی وماریشنال برازیلی، ولد فی ماشنایو (۱۸۶۲ ـ ۱۸۹۰)، أحد زعماء ثورة ۱۸۸۹ (المترجم)

أيام العيد القومى تموج المدينة بالحركة. تزدان بأعواد البامبو والأعلام ذات اللونين الأخضر والأصفر، وتعزف الفرقة الموسيقية في السقيفة بميدان المساحة ألحاناً وطنية، فخورة بإتقانها - إنها أفضل فرقة موسيقية في المدن وضواحي الولاية. في العاصمة فرق قليلة التي باستطاعتها أن تنافسها. ورغما عنه كان «يوكما» النجار الذي يجيد عدة صنائع من بينها وظيفة المايسترو «لا يعرف (كلا)»... ولايشارك في إحراز نصر في أي من جوقات العاصمة إذا كان هناك تحد...

وفى السوق الخيرية، كان بعض الأتراك يلتقطون صوراً فورية، وشبان يتحدثون مع خطيباتهم.

فى يوم العيد الكبير هذا قام المحافظ المحترم (محترم لدرجة أن الثورة لم تتجح فى خلعه فقامت فقط بتغيير اسمه إلى «مشرف») بالاشتراك مع الكابتن تيودورو بتنظيم برنامج احتفالى خارج عن المألوف. فى الثالثة بعد الظهر تحدث سيادسة القاضى من سقيفة الميدان، وفى المساء عقد النائب العام مؤتمراً عن «العيد الوطنى».

النائب العام هو ريكاردو براس. كان قد حاز شهرة كخطيب مفوه ببعض الخطب التى ألقاها فى مناسبات احتفالية مثل هذه المناسبة. وفى الاحتفالات كان يلقى أشماراً من نظمه كانت تنال إعجاب الآنسات وتثير غيرة دونا روث. بل لقد أعاد ريكاردو الحياة لصحيفة «القرنفل». أحب اسم الصحيفة: «القرنفل»، فالقرنفل مثل المسمار باستطاعته أن يثقب ويخترق، وكعود قرنفل يمكنه أن يبهج ويعطر.

اسم مناسب، غنى بالمعانى. كانت أعمال ريكاردو قليلة. لم يكن هناك إلا عدد قليل من المتهمين. فكان يربى الطيور، ويثرثر فى الصيدلية. بحب زوجته. وكان يشعر فى قرارة نفسه بالشقاء التام. لم يخلق لهذه الحياة. كان نفس الشئ يعذبه: افتقاره إلى شئ غير متوقع. لقد كان أصدقاؤه على حق: ها هو لم يجد السعادة في الزواج. فشلت تجربته. وتحول حبه إلى عادة. قبلة الصباح، والوجبات المقترحة خلال اليوم. والمناقشات من أجل الغداء، وفي المساء وهما في السرير، كانت روث كما هي لاتتغير أبداً. لم تعطه أبداً إحساساً جديداً، ولم تقل له أشياء مسلية. إنه يحبها بطريقة برازيلية، برجوازية للغاية، جديرة بامرأة متزوجة، بلا نزوات أو نقائص. كان الهدوء الذي يعيشان في كنفه يعذب ريكاردو براس. بالقطع لم يخلق هو لذلك. تفاهة هذه الحياة - الأكل والنوم وإلقاء خطبة هنا أو هناك والتحدث إلى أناس جهلاء... لقد فشل... عدم الرضا الذي ظن أنه قهره. يسيطر عليه تماماً. واستولى عليه الإحباط. كان يقضى أياماً صامناً، يقرأ الكتب القليلة التي أحضرها من دباهيا، وكانت دروث، ترى أنه دتغير».

- إنك في حاجة يا حبيبي الصغير لأن تفقد جنون الأدب...

م أعرف ذلك.

كان يحب أن يتجول في الأراضى المجاورة ويفكر. لقد دفن حياته. في يوم من الأيام سيصبح قاضياً. ولن يتجاوز هذه المرتبة، سيكون قاضياً محترماً بقية حياته، لقد كان من الأفضل كثيراً أن يبقى في «باهيا» مع أصدقائه، يعانى معهم المأساة التي تعذبهم.

أكثر من مرة، كان يبدأ في كتابة رسائل إلى باولو ريچيه وخوسيه لوبيز ولكن الغرور كان يمنعه من إرسالها إليهم. لم يكن يبوح بتعاسته لأحد... لقد فشل...

_ السعادة لاينالها إلا المغفلون والأغبياء...

كم هو على حق بيدرو تيسيانوا كان ريكاردو يحتج، وكان يؤكد أن معنى الوجود يكمن في الحب. وبرهن على ذلك فتزوج، وأحب زوجته التي تنتظر طفلاً. لقد حقق كسباً نسبياً ولكنه تعس للغاية.

كان يظن أن الهناء اليومي في متناول الرجال الأذكياء...

* * *

كان ميدان المساحة يعج بالناس. كل الناس في أبهى ثيابهم. وكان هناك صار للحلوى (١١)، ولعبة القدور المكسورة، وسباق الأجولة (٢)، وخطبة سيادة القاضى. وفي المساء المؤتمر الذي طال انتظار ريكاردو براس له.

- إنه متحدث جيد. النائب العام...
- ـ سيلقى قصيدة (صغيرتى، إن هذه لمعجزةا... وسوف يحاكى:

اعندما تمرين أيتها الأميرة....

كانت جماعة من الناس تثرثر في صخب، وكان ريكاردو جالساً بجانب زوجته مستغرقاً في أفكاره. لم ير القاضي الذي أقبل عليه بلا كلفة:

- _ مرحباً يا ريكاردو!
- ـ أوه. دكتور فاوستينو! لم يبق إذن إلا وقت قليل لنسمع خطبتك...
- _ سوف ترى. خطبة رائعة. لايوجد هنا سواك والطبيب، أنتما فقط ستفهمانني أما الباقون فجهلاء...

طالب الحاضرون سيادة القاضى أن يلقى خطبته. انطلقت الفرقة الموسيقية تعزف النشيد الوطنى. تقدم القاضى متتصباً، فى معطفه الفراك القديم وشعيرات قليلة بيضاء تهفهف فوق صلعته مشيراً بذراعه. وبدأ الخطبة:

⁽١) صارى يعلق في أعلاه حلوى، ولايمكن الحصول عليها إلا بتسلق الصارى. (المترجم)

⁽٢) سباق يقوم فيه المتسابقون بالقفز، وقد وضع كل منهم نفسه داخل جوال. (المترجم)

_ أيها البرازيليون...

ارتجل الخطبة التى حفظها عن ظهر قلب فى الليلة السابقة. استرجع الماضى المجيد للمدفع المدافع المباراجواى، من بقايا ثروة المدينة) وختم بأن قبل العلم فى وجد:

ـ وطنى الأم! وطنى الأم!

واتطلق التصفيق والتهليل والعناق والتهاني والتحيات.

_خطبة رائعة!

ـ حتى زوجة المحافظ بكت.

اقترح الكابتن تنظيم جيش احتياطى. سيكون ذلك رائعاً. عندما تقع الحرب مع الأرجنتين...

أراد القاضي أن يعرف رأى (زميله) ريكاردو براس في الخطبة.

_ لقد أعجبتني كثيراً. كانت رائعة جداً...

حاول الأطفال أن يتسلقوا صارى الحلوى سعياً وراء ورقة نقدية من فئة الخمسة آلاف رايس كانت تتأرجح فوق القمة. ومن قدر مكسور خرجت قطة ملعورة وهربت يلاحقها الأطفال المشاكسون. كان ريكاردو براس يراقب كل ذلك بضيق شديد. لقد دفن حياته...

ـ لماذا لاتذهب وتتحدث مع المحافظ والقاضى؟ إنك هنا مثل الدب...

كانت روث تستغرب مسلك زوجها.

اتجه ريكاردو نحو الجماعة. كانوا يتحدثون عن تكوين الجيش الاحتياطي.

- ليكن سيادة الناتب العام هو الرئيس.

- شكراً. الرئيس يجب أن يكون سيادة المحافظ.

- وسيادة القاضي، السكرتير.

والطبيب سيكون أمين الصندوق.

- والدكتور ريكاردو. الخطيب...

ـ موافقة.

اقترب السيد اليوكاديوا مدير مكتب البريد:

- دكتور ريكاردو. بالأمس وصل خطاب لك، ها هو.

خطاب من باولو ريجيه. كان متلهفاً على أخبار من أصدقاته. وها هي جاءته.

لكن عليه أن ينتظر كثيراً، فبعد نهاية الاحتقال، هناك المباركة، وموعظة القس عن عفة...

أغلق على نفسه الغرفة. عندما أتم قراءة الخطاب تساقطت الدموع من عينيه وبللت المرافعة التى كتبها منذ أيام. لقد مات بيدرو تيسيانو... مات وهو يؤكد أن السعادة هى ألا نرغب فى شئ... أما هو، ريكاردو براس الذى رغب كثيراً... الحياة من أجل الحياة... وهو أراد الحياة من أجل الحب... تعس... تمك رأسه تسقط فوق المنضدة فى حركة إحباط كامل. واستولى الأصياء على أعضائه...

- لا يبلغ السعادة إلا المغفلون والأغبياء...

- كل نصر في الحياة فشل في الفن.

وأخذ صوت بيدرو تيسياتو يرن في أذنيه. وأخذ يتراءى له شبح صديقه، طويلاً ضامراً في لباسه الأسود دوماً، متشككا ينطق بالمفارقات...

_ أن نصل إلى أقصى درجات الإنكار للرغبة...

وبكى ريكاردو براس على فشله.

سمع طرقاً على الباب. لم يجب. طرق الباب من جليد.

_ من؟

ــ آنا، روث...

_ماذا مناك؟

ـ أتريد أن تجعل المحافظ والقاضي ينتظران؟ لقد حان وقت المؤتمر. هيا.

وحاز ريكاردو براس. في ذلك المساء، نصراً هائلًا، بخطبته الوطنية...

بعد ذلك. كان الضجر...

نفس الشئ دائماً.

الأرض تدور حول الشمس ٣٦٥ يوماً

يوم ويوم آخر.

الأرض تدور حول نفسها في ٢٤ ساعة.

النهار والليل.

دائماً نفس الشئ.

نفس المأساة: مأساة الرتابة...



كان التغير الذى طرأ على خوسيه لوبيز سريماً. لقد اختفى منذ شهر، ولم تفلح المحاولات التى بذلها باولو ريچيه فى العثور عليه. لقد تبخر خوسيه لوبيز. كان نادى القمار قد أغلق. وصاحبة البنسيون ليس لديها معلومات. وفى ظهيرة اليوم الذى قرر قيه باولو ريچيه الكف عن البحث عنه قابله خارجاً من عيادة طبيب. كان متأنقاً تبدو عليه الطمأنينة.

جرى وراءه فقلب كمية من علب الهدايا كان رب أسرة محترما يحملها بمناية فائقة إلى منزله.

_هالو، خوسيه!

استدار خوسيه لوبيز وعانق باولو ربحيه بحرارة.

_ كنت على وشك أن أذهب لرؤيتك.

- لقد اختفيت، لقد انهكت قدمي في البحث عنك...

أخذ باولو ربچيه يتأمل صديقه. وجهه هـادئ وابتسامة على شفتيه، أيكون قد عثر على غاية الحياة؟

_ إنك شخص آخر... تغيرت تماماً... هادئ...

- ... أتعنقد ذلك؟
- _ أعاشق أنت؟
- ـ لا، لحسن الحظ.

ماذا إذن، بحق الشيطان، وقع لك، لتصبح هكذا؟... هل تذكر ذلك الإعلان الذي لم أعد أذكر عن أي دواء كان؟؛ ففي البدء كنت هكذا» مع صورة لرجل مريض نوعاً؛ فوأصبحت هكذا» مع صورة الرجل وقد أصبح جلداً على عظم. فواليوم فإنني هكذا» ويصبح الرجل سميناً وقوياً. إنك حققت معجزة الإعلان. عندما عرفتك كنت مريضاً نوعاً. بعد ذلك ساءت حالتك بشكل كبير. واليوم، أنت معافى تماماً...

كان خوسيه لوبيز ينصت مبتسماً.

- _ أي دواء ذلك الذي شفاك؟
- ـ أنلهب إلى الحانة؟ هناك نكون على راحتنا ونثرثر.
 - ۔ میا بنا۔

كانت الحانة مزدحمة! الراديو يذيع مباراة في كرة القدم. ونساء متقصعات كن يوزعن الابتسامات. ورجال جادون يشربون في صمت، في تلك البهجة الهادئة الني تسببها أكثر الفضائل قدسية: الحماقة.

جلسا إلى مائدة فى ركن منعزل. لم يعد باولو ريحيه نفس الشاب الأنيق مثلما كان عند عودته من أوربا. أصبح قليل الاهتمام بملبسه، مفعماً بالمشاكل التى كانت كلها ذاتية. ومع ذلك فالنساء تنظر إليه . الدكتور باولو ريجيه أليس هو صاحب المزارع الكبيرة؟

- _ أهي الفلسفة...؟
 - ــ نعم...

- أتذكر بيدرو تيسيانو يا خوسيه لوبيز؟ كان يقول: إن المرء يحيا من أجل الحياة، وأنه لن يجد السكينة مهما كانت نسبية إلا بالكف عن الرغبة. أن يصبح لا مبالياً... ألا يرغب في شئ... مثل بوذا، توصل تيسيانو إلى هذا الكمال. أما نحن رجال هذا القرن فلن نقدس الشك كما فعل. سنحاربه ونحارب بيدرو تيسيانو. لقد حاولنا أن نكتشف معنى الوجود؛ الغاية التي من أجلها نحيا؛ السعادة إن أردت الدقة. وأنت. كنت تقول: إنها تكمن في الحقيقة الفلسفية، وريكاردو براس يقول إن الحب المبنى على العاطفة هو وحده الذي بإمكانه أن يقودنا إلى مرفأ الأمان. لأن معنى الحياة يكمن في الأشياء الطبيعية وحدها... كنت أفكر مثله وبحثت عن السعادة في الغريزة. لقد فشلنا. لا أتحدث عن چيرونيمو فهو لأنه تافه ليس من هؤلاء الرجال الذين يعذبهم عدم الرضا. وعدم رضاهم ليس إلا انعكاساً لعدم رضاها.

ــ تعم...

_ لقد فشلنا، وأنت قلت لى، يوم وفاة تيسيانو، إنك لم تعد تنتظر شيئاً من الفلسفة... وإنك تخليت عن...

.. من حق المرء أن يصاب بالإحباط أحياناً.

ـ قلت لى إنك لا ترغب فى شئ، وإن بيدرو تيسيانو بشكوكه التى ترجع إلى ماقبل الحرب. كان على حق، وإن الحقيقة هى الشك وإنك مؤيد لرأيه...

- أكرر لك أنها كانت لحظة إحباط، ولكنى لم أتخل أبداً عن البحث في الفلسفة عن قوة تقهر عدم الرضا. لحل المشكلة...

- ـ وهل وجدتها؟
- _ لقد وجدتها. إن الثقافة الفلسفية تكفى لتجعلنا في سكينة...
 - إن السكينة هي تزييف...
- ... تزييف السعادة، أعرف. ولكن السعادة المطلقة لا وجود لها. ولا حتى بالنسبة للمحمير. ولا حتى بالنسبة للحيوانات. فما بالك بنا نحن البشر! فلابد من السكينة. السكينة التى لم يمنحها الزواج لريكاردو براس، وأبت الغريزة أن تمنحك إياها...
 - ولكن هذا ما بلغه بيدرو تيسيانو بالشك.
 - ـ أي عبدأ فلسفي.
 - مبدأ ألا يكون للمرء فلسفة...
 - _ وهذا أيضاً موقف فلسفى...
 - ـ وهذا هو الموقف الذي تبنيته أتت؟
 - **ـ کلا**.
- إننى لا أفهم إذن كيف يمكنك أن تكون في سكينة. من يمتلك الحقيقة؟ أنت أم بيدرو تيسيانو؟
- أتبحث عن هذه الحقيقة القديمة جداً التي ظلت لقرون طوال في قاع بتر؟ هذه الحقيقة يا صديقي تقبع هنالك. وكما قال تيسيانو، لن أذهب لأخرجها من هناك. سأترك هذه المهمة المضحكة للآخرين...
 - ـ لم أعد أفهم...

- ـ لأن الحقيقة شئ نسبى. ولابد من حقيقة خاصة بكل إنسان. وهذا ما يمنح السكينة لكل فرد فتكون له بمثابة الحقيقة المطلقة...
 - ـ معنى ذلك أن أى نظام فلسفى يحل مشكلة شكوكنا؟
 - ـ نعم.
 - ـ شئ عجيب!
- إنها مسألة عواطف... إنك في حاجة إلى الله، لذلك لجأت إلى «التومائية». إنك في سكينة. والحقيقة الفلسفية للتومائية بالنسبة لك هي الحقيقة الكبري...
 - _ أأنت تومائي؟ لقد كنت دائماً تقول لي ...
 - كلا. لقد وصلت إلى الطرف النقيض. إنني مادى...
 - ـ وحاجتك إلى الإيمان؟
 - ـ بدلاً من الإيمان بالله أؤمن بالإنسانية. أريد سعادتها...
 - ـ إذن أنت...
 - ـ ... شيوعي...
 - ـ مستحيل...
 - هذه هي الحقيقة.
 - ـ ولكن للشيوعية عيوبا لاتحصى يا خوسيه.

اتخذ خوسيه لوبيز هيئة جادة، كمحام يستعد للمرافعة. فانفجر باولو ريچيه في الضحك.

_ إنك تسخر مني ...

- _ لا أقدر على ذلك...
- _ إذن أتحب الإنسانية كلها؟
- كما فعل المسيح... وبوذا أيضاً... أما بالنسبة لعيوب الشيوعية فمزاياها تغلب عليها...
 - _ ولكنك تتساوى مع كل المغفلين...
 - ـ في اللحظة الراهنة كلهم أسمى مني...

والأسرة؟

- ليست لي أسرة وأنت تعرف تماماً. وتابع قوله:
- ـ ومع ذلك. لابد من التخلص من الأحكام المسبقة للشعب، لابد من هدم الكناتس والمُثل، لابد من قطع الرؤوس. وحكومة النخبة؟
 - ـ نخبة البحارة...
 - ـ إن نخبة اليوم هي نخبة الأميين والمغفلين...
 - أتؤمن بالانسانية؟ وبمواطفها النبيلة؟
 - أوه، كلاا أؤمن بالعواطف لا بما يسمونه بفجاجة العواطف النبيلة.
 - سوف نرعى العواطف الدنيئة ونهذبها.
 - ـ والحركة الروحانية؟
 - ـ مجرد رد فعل...
 - إنني مع الوقت، أشعر بحاجة قوية للإيمان...

- ذلك لا يعنى أنك تشعر بالحاجة إلى الإيمان بكائن أسمى. فلتؤمن بالإنسان وبالأشياء المادية. تذكر أننى كنت أفكر مثلك...

- أتريد أن تحولنى عن إيمانى؟ لن أكون شيوعياً جيداً. إننى أحب التأنق في المليس.

_ إنك غنى، ولا أسعى لأن أحولك عن إيمانك. إنك برجوازى كبير، وعليك أن تحاربنا...

ـ أنا؟ كلا. فليتحول العالم. لقد أصبحت في غاية الشقاء... إننى مثال واضح لجيلى. الجيل الذي يعانى والذي شهد الديموقراطية تلفظ أنفاسها الأخيرة، وشهد ميلاد الشيوعية. جيل عبارة عن همزة وصل. جيل المعاناة. لقد ضعت في ليل الشك وهأنذا أغوص فيه رويداً رويداً. أيد خفية تخنقنى. إننى في نهاية الأمر في حاجة إلى أي شئ مهما يكن...

ـ إننى أفهمك عاماً.

- وأشعر أن سكينة بيدرو تيسيانو التي هي سكينتك لا تكفيني. ربما أطفالي الصغار وحدهم من سيحلون المشكلة. كل الجيل الذي خاض صراعاً هو الجيل الذي يعاني. لقد خضنا صراعاً ضد الشك...

كان الراديو يصرخ بمعمجزات إحدى القديسات التي ظهرت في مدينة بداخل ولاية دميناس چيرايس.

- إن هذا الشعب التقى لن يقبل أبداً نظامك السياسي.

ـ إن هذه التقوى تساعد.

- إننا، برازيليو اليوم. نشعر في داخلنا بمليون نقيصة. إننا نعاني من أجل أجدادنا ومن أجل أحفادنا...

ـ الحل هو...

السكينة من جديد؟ إنه متوتر الأعصاب في الآونة الأخيرة. سوف يعالج نفسه في أوربا. سيقرأ كثيراً. ربما تكون الفلسفة...

ـ تفاهات...

احتجت أمه. لقد وصل بالأمس... لقد رتب كل شئ. وهي ستذهب أيضاً لتشاهد العالم القديم. أمضى النهار يصف لها العجائب. واقتنعت. اتفقا أن يذهب إلى ربو لشراء الحاجيات الضرورية وعندما تمر السفينة بباهيا تصعد هي. وفي ربو شعر باولو بهدوء أكبر. في زحام هذه المدينة الرائعة، لم يعد يتذكر مأساته الغرامية. كانت ماريا ديه لورديس قد خبت داخل عقله. وبقى له الشك في كل شئ. وعدم الرضا المعتاد، ووسواس من شئ مجهول... قرأ الصحف، شباب يؤسسون كتائب فاشستية، والحزب الشيوعي يزداد صعوداً. الماديون والكاثوليك يناقشون قرارات الحكومة بشأن التعليم. كان السخط يفوح من أعمدة الجرائد، وكان الشك بلقى بظلاله على وجوه الشباب.

ـ أعتقد أن مصيبة كبيرة سوف تقع...

أعلنت الصحف اليومية أن الشعب يسارع إلى داخل ولاية «ميناس چيرايس» حيث تقوم إحدى القديسات بشفاء المرضى. أما أخبار الحوادث فقد قرأ تفاصيلها باستمتاع.

واستولت على باولو ريجيه رغبته في أن يخنق الجميع. لماذا لابجدون السعادة؟ لماذا لاينسوا مشاكلهم؟ آليسوا طيبين؟ لقد أراد أن يكون طيباً، وأن يساعدهم جميعاً. ولم يستطع. كره أشباهه. لن يغفر لهم غباءهم...

للقد خضت مغامرة السعادة... يادون كيخوته المسكين!

* * *

- في أي يوم تريد أن تسافر يا سيدي ... الأحد، يوم الكرنفال ...

أسف الحمال الزنجي. لم يسمعه فقد كان منغلقاً على ذاته. مكتنباً. هبط ونادى تاكسياً.

- أوصلني إلى الميناء.
- ... في أي ساعة تريد أن تكون هناك ياسنيور؟
 - _ خلال أربعين دقيقة.

أعلن السائق:

- ـ مستحيل. في يوم كرنفال نستغرق ساعات وساعات في عبور الشارع.
 - ـ أوصلني إلى حيث تستطيع، وسوف أكمل الطريق مشياً...

هبط من السيارة وأخذ يتجنب الزحام الرهيب. كان الناس يرقصون السامبا فى الشارع وكان باولو ريجيه، وقد اعتصر قبعته فى يده، وتشعث شعره والغضب يقدح من عينيه، يحاول أن يشتى لنفسه طريقاً، دفعاً بالقبضات والمناكب.

- ـ ابتعدوا أنتم بحق الشيطان!
- هيه، أيها الأبيض، أنرقص السامبا...

وجلبته الخلاسية. والتصقت به بشهوانية.

- اتركيني أيتها الزنجية ا

وانتزع نُفسه من هناك مخترقاً كتلة الزحام.

- منى نهاية الأمر، قد يكون هذا الشعب على حق. ربما يكمن كل شئ في الكرنفال...
 - .. يا لأناقة ملابسك ...

ورشت عليه الفتاة في هستيريا من زجاجة عطرها.

- فلتذهبي إلى الجحيم!

وبدا من جديد تعساً. عندما وصل من أوربا وكله غريزة كان قد عرف مفاتن الجسد. واليوم يسيطر عليه الشك فقط...

لحق بالسفينة في آخر لحظة. الركاب قليلون، انجليز وأرجنتينيون يعشقون المدينة التي كستها الظلال. الليل يسود ريوديه چانيرو. كان باولو ريچيه على مطح السفينة يقارن المدينة الكرنفالية الغارقة في الظلام بروحه. وفجأة، انتشر الضوء في المدينة التي بدت ساطعة، خارجة من الظلمات. وابتعدت السفينة في هدوء...

كان باولو ريجيه عصبياً يضغط على شفتيه وهو يشاهد أمامه، على جزيرة «كوركوفادو» تمشالاً للمسيح فارداً ذراعيه وكانه يبارك المدينة الوثينة. وزاد الحزن فى صينى باولو ريجيه. رفع ذراعيه فى حركة تنم عن منتهى اليأس وتمتم وهو يرمق التمثال الهائل:

ـ يا سيد، أريد أن أكون طيباً! يا سيد أريد أن أكون مطمئناً... وعلى البعد كانت تختفي بلاد الكرنفال.

ريو، ۱۹۳۰

انتهى

ـ انتحار عام...

صمت باولو ريچيه منهكاً. ومن جبهته العريضة كان يسيل عرق بارد. وكان خوسيه لوبيز حزيناً، تضيع نظرته الشاردة في عمق الحانة.

ـ هذه الحياة...

عانق باولو ريجيه، فعليه أن يذهب إلى منزل صديق، إسكافي. وباح لصديقه هامساً في أذنه:

- لابد أن نجد مبدأ، مشلاً أعلى، أن نوهم أنفسنا على الأقل. إننى أوهم نفسى بمسألة الشيوعية هذه، لذلك هربت منك. إنك نواجهنى بالواقع، وتشقلنى بالأحزان. إننى الآن أعالج نفسى من السل الذي يترصدنى... أرأيت... لقد أصبحتُ عاقلاً... وقد أصبح غبياً...

تابعه باولو ريچيه بنظره حتى نهاية الشارع.

تمتم في صوت مأساوى:

ـ التعس...

جرع كأس الكونياك.

_ التمس...

* * *

قرر أن يعاود الرحيل إلى أوربا. عندما عاد إلى البرازيل، أنيقاً، متشككاً. مُدمراً، مفعماً بالأحلام كان يعتقد أنه حقق شيئاً ذا بال. سوف يصبح كاتباً معروفاً وسياسياً بارزاً. لقد فشل... كان نقط غير راض، تعساً، بعد أن تعرض لماساة غرامية وحاول الانتحار. سيعود إلى باريس لكى ينسى. من يعرف إذا كان سبجد

إن «بلاد الكرنفال» التي صدرت في البرازيل في ١٩٣١ ظلت حتى وقت قريب لايمكن قراءتها إلا بالبرتغالية

حسب رغبة مؤلفها. في ١٩٨٤ فقط، وتحت إلحاح الأستاذة «لوتشانا ستيجانو بيتشو» وافق چورچي آمادو، وبصفة استثنائية، أن تظهر الرواية في ايطاليا في طبعة خاصة بمناسبة عدا مد الاده رود ذلك كان طبعة أن رص حالس مدة «آلس

عيد ميلاده. بعد ذلك كان طبيعياً أن يصرح للسيدة «آليس ريّار» أن تسرجم الرواية إلى الفرنسية فصدرت عن دار جاليمار في باريس في ١٩٩٠ وهي التي نقدمها هنا.

فى هذه الرواية التى كتبها فى سن الثامنة عشرة يضع آمادو يده على موطن الداء فى السرازيل: البحث عن الهوية. ليس فى السياسة فحسب بل فى الاقتصاد والأدب وأساليب

ليس في السياسة فحسب بل في الاقتصاد والأدب وأساليب الحكم وكل نواحي الحياة. أليست هي المعضلة في كل بلاد العالم الثالث تـقريباً؟

وهكذا تكون هذه الرواية التي كتبت منذ أكثر من ستين عاماً صالحة للقراءة اليوم وغداً، بأبعادها الإنسانية وتخطيها لحواجز التاريخ والجغرافيا معاً.

«المترجم»